قصص

عزيز نيسين

الكرسي

ترجمة: فيصل نور

IWAN
PUBLISHING HOUSE
كيوان
للطباعة والنشر والتوزيع

الكرسي

عزيز نسين

الكرسي

قصص

ترجمة: فيصل نور

IWAN
PUBLISHING HOUSE
إيوان
للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: الكرسي
المؤلف: عزيز نسين
المترجم: فيصل نور
الطبعة الثانية: 2008

جميع الحقوق محفوظة

دار كيـوان
للطبـاعة والنشـر والتـوزيـع
الحلبوني . دمشق . سورية تلفاكس: 00963 11 2217240
E- Mail: kiwanhouse@mail.sy

KIWAN Publishing House – Damascus – Syria
Telefax: 00963 11 2217240
E- Mail: kiwanhouse@mail.sy

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrival system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

الإهداء

إلى من زرع في قلبي بذوراً نمت تفاؤلاً وعملاً

إلى الأيدي التي تهافتت كي تساعد في إنارة هذا الدرب...

مقدمة

قال اسبينوزا: «إذا وقعت واقعة عظيمة، لا تضحك ولا تبكِ ولكن.. فكِّر».

تتجسد المقولة السابقة في نهج عزيز نسين القصصي، إن عزيز نسين اسم غني عن التعريف.

والكثير من أعماله أصبحت في ذاكرة القارئ العربي.

حياة عزيز نسين التي ملأتها المعاناة. أعوام السجن المريرة، وإغلاق العديد من الصحف التي أصدرها لم تنهِه عن إتمام مهمته الجليلة، والتي تتمثل باختصار: «لسان حال المجتمع التركي خاصة، ومجتمع العالم الثالث عامة».

عاش عزيز نسين بين عامة الناس كفرد منهم، عرف طرائق تفكيرهم، شاركهم أفراحهم وهمومهم. أصبح مرآة تعكس واقعهم وتجسده في لوحات ساخرة، يبعث ظاهرها على الضحك. تحمل في ثناياها الألم والمعاناة والتخلف الذي يعيشه إنسان العالم الثالث وتنطق بالحقيقة الجلية، والتي مغزاها:

إن التخلف ليتولد عن القهر، وما من شعب يتخلف اعتباطاً، ويبقى متخلفاً بمشيئته.

عزيز نسين يشكل الآن مدرسة بحد ذاتها، يرتادها الكثيرون، ممن تحملوا عبء القيام بالمهمة الشاقة التي أداها الكاتب العظيم بكل أناة، والتي تعتبر في رأيي من أهم الأهداف التي ينذر الكاتب حياته لأجلها. ذلك أن النهضة لن تجد إلى حياتنا سبيلاً، ما لم ندرك عيوب واقعنا وأزماته. وهذا الأمر ممكن التحقيق بشكل من الأشكال، من خلال مدرسة عزيز نسين. وإني لأفخر أن تكون باكورة أعمالي التي أنقلها إلى العربية مجموعة (الكرسي) الممتعة، للكاتب الذي أحمل له في قلبي كل تبجيل وتقدير، وأتوق لأن أصبح تلميذاً في مدرسته. ومن دواعي سروري أن أقدم ثمرة جهدي للقارئ العربي، وأتمنى أن يجد عملي مكانه في مكتبته، ولشعبي العربي في سوريا بشكل خاص، الذي أعتبر نفسي فرداً من أفراده، لا يفصلني عنه سوى.. جواز السفر.

فيصل نور

الكرسي

- رحيم أفندي، هاتِ ستة فناجين قهوة...
- أمرك يا بيك.

قالت فخرية وهي الموظفة الوحيدة في الغرفة الكبيرة:

- أنا لا أريد يا بيك.

قال الرجل الجالس وراء أكبر طاولة قرب الحائط الأيمن:

- مستحيل.. ستشربين. كل يوم لكم مني ثلاثة فناجين شاي أو قهوة.وإذا كنت لا تريدين شاي أو قهوة، أطلب لك الكازوز.

قالت فخرية التي مضى شهران على تعيينها في الوظيفة:

إذا كان هكذا، أفضل الكازوز.

قال العجوز ذو النظارات للمستخدم:

- خمسة فناجين قهوة، وكازوزة يا رحيم أفندي.
- أمرك يا بيك.

كل من في الدائرة ينادي العجوز يا بيك، ابتداءً من المدير وصولاً إلى المستخدمين إلى البوّاب، قال البيك:

- اثنا عشر يوماً بقي يا شباب، اثنا عشر يوماً.

ثمة طاولتان بجانب كل جدار من جدران الغرفة الكبيرة. والبيك هو رئيس الموظفين الستة الجالسين خلف تلك الطاولات.

قرع الباب. دخلت امرأة تحمل أوراقاً. نظر البيك إلى الأوراق بلا مبالاة وقال:

- إلى الطاولة المقابلة..

ذهبت المرأة إلى طاولة معاون البيك صائم أفندي.

قال البيك وهو يقلب الأضابير:

- الله يخلصكم.. إن شاء الله تخلصون في اليوم المناسب والساعة المناسبة.

سأل الموظف الشاب المسبل بالزيت شعره الطويل، وذو الكرافة والقميص مرتفع الياقة:

- كم سنة مضت، وأنتم في خدمة الدولة يا بيك؟

- في السابع عشر من آب القادم إذا قسم لنا الله، تكون خدمتي للدولة قد بلغت تسعة وثلاثين عاماً.

خرجت المرأة التي وقعت أوراقها، والبيك ما زال يروي:

- كنت في الحادية والعشرين من عمري. تطوعت في الجيش أولاً، وكنت مرشحاً لوظيفة في ديوان الشعبة الثانية في دائرة الإعاشة. وفي نهاية الحرب وبموجب الترقية نقلت وظيفتي إلى وزارة الحربية.

جاءت القهوة، وأشعل البيك سيجارته بمتعة، رشف من فنجانه الأزرق الكبير رشفةً لذيذة. كانت فناجين الموظفين بيضاء وصغيرة، أما فنجانه فكان أزرق، رسمت عليه بماء الذهب زهورٌ ملونة. أحضره من البيت، وسلّمه للمستخدم رحيم أفندي، وعندما يطلب البيك القهوة يحضرها في هذا الفنجان حصراً. وقبل أن يصل الفنجان إلى فمه يزم شفتيه، ويرشف القهوة بصوت عال.

قال الموظف الشاب الأنيق:

- لم أكن مولوداً بعد، عندما بدأت العمل.

ضحك العجوز وقال:

- ليس أنت فقط، بل أبوك أيضاً لم يكن قد ولد.

سألته فخرية:

- لماذا لم تتقاعد حتى الآن يا بيك؟

- لم يحسبوا لي خدمة أحد عشر عاماً في السجلات يا ابنتي، فصلوني من العمل، هكذا ضاعت خدمة أحد عشر عاماً، والآن أكملت من جديد ثمانية وعشرين عاماً.

قال معاونه:

- بقي تسع سنوات لتقاعدي.

- وأنت ستتقاعد إن شاء الله وكلكم ستنجون. إيه.. سهلٌ على المرء أن يقول تسعة وثلاثين عاماً. إنها عمر بأكمله، ياه، ثم تابع:

- هذه نصيحة أبوية لكم، كونوا على حذر، فلا توظفوا أولادكم. ليكونوا سائقين، حلاقين.. أي شيء يكفي أن تكون لهم مهنة، المهم أن لا يكبل يديه أي سوار من ذهب في الوظيفة.

في ذلك اليوم لم يمسك البيك العمل بيده، اثنا عشر يوماً فقط تفصله عن التقاعد، وقد أصابه الملل من الأوراق المكدسة على الطاولة، والطوابع، والتواقيع الباهتة المتكررة، والأختام الكالحة، والمعاملات الجامدة. فأشار برأسه للرجلين اللذين دخلا الغرفة تواً، بالتوجه إلى الطاولة المقابلة.

زفر زفرةً طويلةً:

- تعالي يا الـ (اثني عشر يوماً) تعالي. هذه الأيام لا تمر بسرعة، وأظنها أطول من التسعة والثلاثين عاماً التي مضت.

السيد صفي الذي لم يتكلم حتى الآن، رجل غير حليق منذ ثلاثة أيام على الأقل، يرتدي سترة كالحة، قال:

- لقد اعتدت يا بيك على العمل، فماذا ستفعل عندما تتقاعد. هل ستلازم البيت مثل غيرك، والله ستشعر بالضيق.

- ماذا تقول يا صفي أفندي؟ تسعة وثلاثون عاماً في هذه الغرفة، أغادر بيتي صباحاً وأعود مساءً، على هذه الطاولة، وهذا الكرسي... لو شبهوا حياة الموظف بعقارب ساعة من ماركة (كاسيو)، لتعطلت مراراً في تسعة وثلاثين عاماً.
- حسناً يا بيك. إذا تقاعدت ماذا ستفعل في البيت؟
- ماذا سأفعل؟!. بل قل ماذا لا أفعل؟.. سأستيقظ باكراً كالعادة، وأقول بسم الله. وأبدأ العمل في أرض الحديقة. فالصراع مع التراب يقلب حياة الإنسان رأساً على عقب، إذ يعود الإنسان إلى عهد الشباب. سأزرع البندورة في جهة، والخيار في جهة، والفاصولياء والباذنجان والفليفلة، وكل شتلة حسب الفصل الذي يناسبها. وسأزرع الورد في مدخل البيت، وسأُنشئ مسبحاً، أربي فيه السمك الأحمر، فأنا أحبه كثيراً. وسأدخل المطبخ وأعد الطعام الذي أشتهيه،محشي، حلاوة..، وأنا أهوى النجارة أيضاً، وسوف أغيِّر أثاث المنزل. آه.. متى تمضي هذه الأيام وأتقاعد؟..

منذ ستة شهور وهو يتكلم عن مشاريعه، ومع اقتراب التقاعد يزداد كلامه، ولا ينتهي إلا في المساء عند نهاية الدوام.

في اليوم التالي جاء في الوقت المحدد صباحاً، حيّا زملاءه، ثم جلس وأخذ يكلم نفسه:

- الله ينجيكم، بقي أحد عشر يوماً، العقبى لكم إن شاء الله. يا رحيم أفندي أحضر للزملاء ستة فناجين قهوة.

تدللت فخرية كالعادة، فطلب لها الكازوز، وبدأ يتكلم عن الأعمال التي سيقوم بها بعد تقاعده، استمر في حديثه حتى المساء، وطلب لزملائه القهوة ثلاث مرات. لا أحد يمكنه أن يصف مقدار سعادته، لكنه يشعر كأن الأيام الباقية عشرون عاماً.

وفي اليوم التالي. قال البيك:

- الحمد لله، بقي عشرة أيام، يوم الغد هو الأحد عطلة...

في صباح الاثنين، أول عمل قام به، نادى رحيم أفندي:

- يا ابني رحيم، خمس فناجين قهوة، واسأل ماذا تريد الآنسة فخرية.

نظر إلى الموظفين وقال:

- يوم الاثنين القادم هو آخر يوم لي معكم يا أولاد، فقد بقي ثمانية أيام، والأحد لا يحسب فيبقى سبعة أيام، والسبت نعمل نصف يوم، فيبقى ستة أيام ونصف، نضربهم بأربع وعشرين ساعة، فكم تساوي؟

البيك أصبح مثل الطفل، راح يحسب الوقت بالساعات والدقائق وحتى الثواني. فنتج عن الحساب مئة وخمس وستون ساعة، واثنتان وخمسون دقيقة، وأربع عشرة ثانية، وضاع ثلاث

ثوانٍ وأنا أقول ذلك، فيبقى إحدى عشرة ثانية. نعم، الله يخلصكم جميعاً.

ثم بدأ بالحديث عن الدجاجات التي سيربيها في الحديقة، وعن البستان الذي سيزرعه والنجارة التي سيشتغل بها.

جميع الموظفين حفظوا برنامج أعماله بعد التقاعد، وأخيراً جاء يومه الأخير، في ذلك اليوم تجول في كل الدوائر، وودع الكبير والصغير، ولم ينس الحديث عن مشاريع ما بعد التقاعد:

- العقبى لكم، الله يخلصكم جميعاً......

بعد يومين أقام زملاؤه حفلة على شرف تقاعده. وفي الليلة الأولى من التقاعد، حلم بالأعمال التي سينجزها في الحديقة، وفي الأماكن الأخرى. تسعة وثلاثون عاماً في الوظيفة، من الطبيعي أن يحلم.

سيبني خُمّاً للديك الرومي قريباً من البيت، ليستيقظ على صياحه. عندما استيقظ صباحاً، كانت الشمس مشرقة. أحس البيك وكأنه عاد عشرين بل ثلاثين عاماً إلى الوراء.

دخل الحديقة، وأخذ نفساً، ملأ رئتيه بالهواء، وطقطق عظام ظهره. الجلوس تسعة وثلاثين عاماً وراء الطاولة ليس أمراً سهلاً. لقد احدودب ظهره.

احتار في أمره، هل يبدأ العمل في الحديقة أولاً أم يقوم ببناء الخمّ؟ ثم قرر البدء بالحديقة.

نادى زوجته:

- يا امرأة..

فتحت عينيها بصعوبة:

- هل جننت؟! من يخرج من فراشه في هذه الساعة؟
- انهضي واحضري المعول والرفش والشوكة؟

أرغمها على النهوض. أحضرت له المعول ولم تجد الشوكة والرفش، فأيقظ الولد ليبحث له عنهما، وبعد جهد جهيد وجدهما، ثم أيقظوا الكنَّة لتجد عربة اليد، واستيقظ أحفاد البيك من كثرة الضجيج.

شمَّر البيك عن ساعديه، وراح يحفر قبل الفطور بساعة وضحك أفراد الأسرة من جنونه. وبعد الفطور رجع إلى الحديقة، فأحس بثقل المعول، لكنه استمر بالحفر حتى وقت الغداء. وكل ما حفره لا يتجاوز ستة أقدام طولاً، وقدمين عرضاً. بعد الغداء وضع قبعته على رأسه لتقيه من أشعة الشمس، وعندما شعر بالإنهاك، راح يسوِّي ما حفره بالشوكة، ثم زرع البندورة على الأطراف والذرة والفاصولياء في الوسط.

لم يستطع البيك تناول العشاء، لشدة التعب والنعاس. فقال:

- يا أولاد، لقد أفادني العمل في الأرض كثيراً، فلم أكن أستطع النوم باكرا من قبل، أما الآن فلا أقدر أن أفتح عيوني.. تصبحون عل خير.

غرق أفراد الأسرة في الضحك إثر مغادرة البيك إلى النوم. في اليوم التالي عندما استيقظ لم يستطع النهوض، مستحيل، ظهره يؤلمه بشدة:

- آخ ظهري.. آخ ظهري.. آخ يداي..

سكت خوفاً من أن يسمعه أحد، لقد كان جسمه منهكاً من رأسه إلى أخمص قدميه. نهض من الفراش قبل أن يكتشفوا حالته،كان يئن ويتأوه وهو يرتدي بنطاله، لكن المصيبة وقعت بعد ذلك.

كل أفراد الأسرة استيقظوا على الصوت، فقد كان يجر ساقيه جراً من التعب، فوقع على الدرج. التف الجميع حوله، فتظاهر بعدم التألم، وهو جالس في مكانه. قال متلعثماً:

- لا شيء، لا تخافوا. تعثرت.. بسيطة..

قال ذلك، وهو لا يقوى على الحركة، فحمله ابنه إلى البيت.

حاول الذهاب مرة ثانية إلى الحديقة، فكان جسمه يرتعش في كل خطوة يخطوها، بسبب الضربة التي تلقاها على عصعوصه. ورغم ذلك تظاهر بالصحة ورمى نفسه إلى الحديقة. أصابعه أيضاً لا تقوى على الحركة. كتفاه، ظهره، ساقاه، تؤلمه بشدة. حاول التظاهر بأنه يعمل، وكلما انحنى ليزرع شتلة، وجد مشقة بالغة في الاعتدال والوقوف.

- إنني ميت، منتهٍ، آي.. آي. آخ يا ظهري، آخ يا كتفي..

حاول الهروب من هذا الحرج بإنجاز عمل آخر، فطلب من زوجته المطرقة والمنشار والمسامير.

قالت له:

- مللت من مطرقتك ومعولك.. لماذا تقاعدت؟ كنت تخرج صباحاً، ولا تعود حتى المساء. آه ما أجمل تلك الأيام!.

ابنه كان يشكو منه لأنه أفسد نظام المنزل.

عشرة أيام وهو يحاول التظاهر بأنه يعمل في الحديقة بجد ونشاط.

وفي صباح أحد الأيام في الأسبوع الثاني بعد التقاعد سمعوا صراخاً:

- آي.. آي.. أصبعي

هرع الجميع إلى الحديقة، فوجدوا البيك راكعاً يتألم، سألوه:

- ماذا هناك؟!.. ماذا جرى؟!..

لقد سحق البيك إصبعه بالمطرقة أثناء صناعة خم الدجاج، فاقتلع ظفره والبيك يقول:

- لا شيء.. أوف..أوف.

لم يبق في جسد البيك مكان خلا من الألم، وكأن هزَّة ضربت البيت، فوقع البيت عليه.

وبرغم هذا، اشترى الدجاج بأنواعه المختلفة، وزرع حيث حفر شتلات مختلفة.

وفي صباح اليوم التالي، لم يتمكن من النهوض، لأنه تعب أمس وتعرض لبرد قارس، وبلغت حرارته تسعاً وثلاثين درجة، وكان يسعل بشدة أيضاً. رقد البيك في الفراش شهراً كاملاً دون أن يعرض نفسه على طبيب. استطاع النهوض بعد ذلك، لكن عصعصه، يديه، ساقيه، كتفيه وظهره ما زالت تؤلمه كثيراً.

منعه ابنه من الخروج إلى الحديقة، تظاهر البيك بالغضب لقرار المنع هذا، لكنه كان سعيداً في قرارة نفسه.

تخلى عن فكرة البستنة وتربية الدجاج، لأن هذا ليس عمله، فلو دخل معركة لما أصيب بجروح كالتي لحقت به. وربما إذا تابع العمل سيكسر يديه، ورجليه، ويقطع أصبعه ويبقى في الجبس إلى ما شاء الله..

قال البيك لنفسه:

- لأعمل في النجارة داخل المنزل.

لم يوفق في هذا العمل أيضاً، فهو يخرب كل شيء، وينسى أين يضع أدواته، فيشغل أفراد الأسرة جميعاً في البحث عنها، وعندما يحاول الإصلاح، كان يخرب أي شيء يقع بين يديه.

تحمَّل الجميع كل تصرفاته، ولكن عندما جرح يده وإصبعه وهو يحاول تقطيع الخشب، غضبوا، واتخذوا قراراً بمنعه من العمل في أي شيء. وبقيت يده معلقة في عنقه عشرة أيام.

جرَّب البيك العمل في المطبخ، وهنا بدأت المشاكل، لأن دخول البيك المطبخ يعني لا يوجد طعام هذا اليوم، ويستغرق جمع

الأغراض التي يبعثرها البيك هنا وهناك أسبوعاً كاملاً. يجدون بعضها في الخزانة، وبعضها في المكتبة. وفي أحد الأيام أضاف للحلاوة ملحاً ووضع في الحساء سكراً بدلاً من الملح. وحوّل الفروج إلى قطعة فحم، وهو (يتفنن في طبخه).

ضجر الجميع منه، فقالت زوجته ذات يوم وهي تصرخ:

- لقد ضاع جمال هذا البيت منذ أن تقاعدت..

الكنّة الغاضبة:

- ماذا تفعل في المطبخ يا بيك؟

ووقعت الكارثة، عندما نسي جرّة الغاز مفتوحة. دخلوا المطبخ فوجدوا البيك منبطحاً على أرض المطبخ، وقد أغمي عليه. ولو تأخروا قليلاً لمات متسمماً بالغاز.

بقي ثلاثة أيام حتى عاد إلى وعيه. منعه ابنه دخول المطبخ. قال البيك:

- طيب ماذا سأفعل؟

- وماذا يفعل المتقاعدون؟.. أذهب إلى المقهى، وألعب الطاولة، تكلم مع المتقاعدين..

لم يبق أمامه حل آخر، فالشتل الذي زرعه يبس، والدجاجات نفقن والديك الرومي أكله كلب شارد..

خرج البيك إلى المقهى في صباح اليوم التالي، يجر جسمه المتكسر والمتهدل من التعب. بنى صداقات عديدة مع رواد

المقهى، تكلم معهم في السياسة، ونقد الرؤساء، وبيّن أن الوضع في البلد لا يعجبه.

مرت أيام والبيك ملازم للمقهى، ولكن هذا الحال لم يعجبه، وملَّ من الطاولة وغيرها من تسالي القهوة، التي لم تلبِّ حاجته.

انسحب إلى غرفته، وكأنه قد خاصم العالم، يقرأ الجرائد في الصباح، لا يكلم أحداً، يمضي اليوم في غرفته.

آه على أيام الوظيفة، لقد كان بمقدورك الغضب والنرفزة على الموظفين الصغار، وتستطيع أن تصرخ بوجه المستخدم والبواب ومن لا يلصق الطابع في مكانه. آه.. ما أجمل تلك الأيام!

فكر البيك في دخيلته، وشعر بالحنين للماضي، فقال لنفسه:

- مضت كل هذه الفترة، ولم أذهب لزيارة الزملاء في الوظيفة.. والله عيب، في الصباح إن شاء الله سأذهب إليهم، لأطمئن على أحوالهم.. هل يجوز أن أكون قاسياً إلى هذا الحد؟ لعلهم يقولون الآن: لم يعد البيك يسأل عنّا بعد تقاعده...

كان حلمه بعد تسعة وثلاثين عاماً في الوظيفة، هو التقاعد والعمل في الحديقة، وتربية الدجاج والنجارة. ولكنه فشل في كل هذه الأعمال، وأصبح نصف معلول من المصائب التي لحقت به.

خرج باكراً من بيته، باتجاه الدائرة، وكي لا يشعرهم بهزيمته، ويتجنب سخريتهم، تجول حول الدائرة ساعتين، وعندما

أصبحت الساعة العاشرة والنصف، صعد على درج الرخام أول من رآه رحيم أفندي:

- أهلاً وسهلاً يا بيك..!

- أهلاً بك يا رحيم أفندي..

رافقه رحيم أفندي حتى باب غرفة زملائه:

- هيا أسرعوا. تعالوا.. جاء البيك.

قام الموظفون عن مكاتبهم، واستقبلوه بفرح شديد. فخرية قبّلته على خديه.

صائم والموظف الشاب الأنيق قبّلا يده، فدمعت عيناه، وأحس بغصة..

لقد تولى معاونه مكانه، وتولى موظف جديد المكان الشاغر.

رمق البيك طاولته بحسرة. رأى بقعة الحبر التي اندفقت يوماً، عندما كان غاضباً من أحد موظفيه. اغرورقت عيناه بالدموع، وبدأ يسعل كي لا يلحظ أحد حزنه..

- ماذا عنك يا بيك؟

- أنا بخير.. كيف أحوالكم يا أولاد؟

- الحمد لله. كلنا بحالة جيدة، ندعو لكم بالخير والصحة..

أحضر رحيم أفندي القهوة للبيك، ولكن ليس بالفنجان الخاص به، لأن البيك أخذ فنجانه عندما تقاعد.

- هل أنت سعيد بالتقاعد يا بيك؟

أخذ نفساً عميقاً وأجاب:

- أنا سعيد جداً. إن شاء الله ستتقاعدون أيضاً..

- هل ربيت دجاجاً؟

- طبعاً.. عندي دجاجات.. ما شاء الله.. إنهن يبضن ستة أيام في الأسبوع، ويعطلن يوماً، لدي دجاجتان لا تبيضان بيضة فاسدة إطلاقاً..

كان يتكلم بلسانه ويضحك في داخله:

- نعم عندي سبع دجاجات، وديكان روميان، ومسبح. يا سلام، تسبح فيه ست أوزات وسبع بطات، كاد يقول إنه وضع سمكاً أحمر، لكنه تذكر فجأة أن الأوز يأكل السمك.

- فرّخت إحدى الإوزات تسعة عشر فرخاً.. أنا سعيد جداً بحياتي الجديدة.

- وماذا عن الحديقة يا بيك؟

- لا تسألوني عن الحديقة. فالذرة طويلة، لو دخلت بين عيدانها تضيع، تقبّلها الشمس كل صباح،اقطع العرنوس وأشويه على النار، شعره أصفر، مكتنز بحبات الذرة، يا سلام لو أن أعينكم ترى الفاصولياء التي عرشت على عيدان الذرة. عندي عدة أشكال من الفاصولياء، عائشة

قاضون، فاصولياء حب، فاصولياء حمراء، فاصولياء الديك. الكوسا أزهرت، والبندورة .. ما شاء الله كل حبة بحجم رأسي.

بدأ الحديث عن عمله بالنجارة، وهو ينظر إلى يده المجروحة، وظفره المقلوع، فأحس بالألم.

- صنعت كراسي رائعة، لو رغبت في شرائها فلن تحصل عليها بأقل من ثلاثمئة ليرة، وفصّلت طاولة وخزانة تستحقان المشاهدة..

وكان البيك يتبع كل جملة يقولها بـ: عقبى لكم إن شاء الله.
مكث في الدائرة حوالي ساعة ولما كثر أصحاب المعاملات، قال البيك:

- طيب.. عن إذنكم.

انتصب واقفاً، وهو يتألم خفية، فقال زملاؤه:

- كرر الزيارة يا بيك، نحن بانتظارك، لا تنسنا.

ثم ودعوه حتى الباب.

لم يشعر وهو ينزل درج الرخام، بأنه يفارقهم فقط، بل أحس أن قلبه انشطر نصفين، نصفاً معه، ونصفاً بقي في الدائرة..

تجول في الشوارع حتى المساء، وعند عودته إلى البيت، غمره ارتياح كبير، أكثر من أي وقت عاشه بعد التقاعد.

وفي اليوم التالي، والذي بعده، أصابته الحيرة: ماذا يفعل؟..

في اليوم الثالث، قصد الدائرة، إلا أنه لم يدخلها، إنما تجول حولها، ثم قفل راجعاً إلى بيته.

هل علم زملاؤه، أنه لا يملك دجاجاً ولا ذرة في الحديقة؟ هل عرفوا أنه يكذب؟..لا..لقد قالوا: عُد، نحن بانتظارك..

صبر خمسة أيام وفي اليوم السادس ذهب إلى الدائرة. لم يستقبله زملاؤه بحرارة كما في المرة السابقة، إلا أنهم كانوا يكنون له الاحترام.

حدثهم عن حديقته ودجاجاته ثم أردف:

- اشتريت كبشين مؤخراً..

جاء رجل له معاملة في الدائرة، ورغم بحث كل الموظفين عن "سجله" لم يعثروا عليه.

- لم يتحمل البيك فقال:

يا ولدي صفي، المعاملة التي تبحثون عنها يجب أن تكون في تلك الخزانة، الدرج الثالث، على اليسار، في المصنف حرف (جـ).ابحث هناك.

وجد صفي المعاملة حيث أشار البيك. في هذه المرة تأخر في الدائرة. لم يخرج أحد لوداعه حتى الباب الخارجي، بل اكتفوا بوداعه من باب الغرفة.

كان دائم الحركة في البيت، يمشي ذهاباً وإياباً كأن شيئاً يقلقه. يذهب ويتجول حول الدائرة كمن يطوف بالبيت العتيق.

KMH

صبر يومين، وفي اليوم الثالث مضى إلى الدائرة وجلس على كرسي في الزاوية. وحدثهم قليلاً عن الفاصولياء، والذرة والدجاجات والكراسي...

كان صائم أفندي يفتش في المصنفات عن بعض الأوراق، فقال له البيك:

- في سجل الذمة، اسحبه، المصنف الرابع على اليسار لونه أسود، ستجد الأوراق هناك حتماً.

وجد صائم أفندي الأوراق المطلوبة في المكان الذي أشار إليه البيك، بعد أن بحث الموظفون عنها يومين ولم يجدوها.

كانت فخرية تضرب على الآلة الكاتبة. نظر البيك إلى عملها، رفَّ جفنيه مستغرباً:

- ماذا تفعلين يا ابنتي؟! عملك خطأ. هذا عمل الشعبة الثانية. سينتظر المراجع دون فائدة، حوِّليه إلى الشعبة الثانية..فعلت فخرية مثلما أمر البيك. جلس أكثر من ساعتين. شرب ثلاثة فناجين من القهوة. وعند الوداع قالوا له:

- مع السلامة. زرنا في أي وقت تشاء. نحن في انتظارك دائماً.

عاد في اليوم التالي أيضاً إلى الدائرة، ومكث حتى نهاية الدوام، حيث خرج مع الموظفين. سُرَّ زملاؤه لوجوده، لأنه يعلم أشياء كثيرة، ويرشدهم إلى المعاملات التي لا يجدونها بسهولة.

حضر البيك في اليوم التالي أيضاً وأنقذهم من ورطة عندما أرشدهم إلى مكان الوثيقة التي يبحثون عنها منذ أسبوع.

- الوثيقة في الأرشيف انزلوا إلى الطابق الأرضي، وافتحوا الخزانة الكبيرة ذات الرقم (ثلاثة) . في أسفلها رقم 1951-حـ- على المصنف، ستجدونها هناك.

وجدوا الوثيقة التي طلبها المدير العام في المكان الذي أشار إليها .

كان البيك يذهب إلى الدائرة بلا انقطاع، يجلس على الكرسي، ويملي عليهم تعليماته،كيف يجب أن يقوموا بأعمالهم، ويدلهم على الأضابير والأوراق الضائعة ويصلح أخطاءهم.

- أين وثائق إحصاء العام الماضي يا بيك؟

- هل تعرف أين قائمة المحتويات يا بيك؟

لولا وجوده لما استطاعوا القيام بعملهم على أكمل وجه.

صار البيك يحضر طعام الغداء معه، ويأكل في الدائرة، يروي للموظفين أحياناً عن دجاجاته بأنواعها ، وعن المحشي الذي طبخه، والخيار الذي زرعه. وأحضر فنجانه من البيت وأعطاه لرحيم أفندي ليشرب قهوته بفنجانه كما في الماضي.

وعندما يتأخر، كانوا يقلقون عليه، ويتساءلون: لماذا تأخر البيك؟

يطلبه المدير وكأنه موظف، يكلفه ببعض الأعمال في الدائرة، ويستشيره في بعض الأمور. شعر البيك بالسعادة تغمره، وأحس أنه يحقق ذاته هنا أكثر من البيت.

في أحد الأيام تأخر، فقال معاونه السابق الذي تسلّم مكانه لزملائه:

- أيها الزملاء كلنا يعلم بحال البيك، ولا ضرورة للشرح.

قال السيد صفي:

- نحن نعرف أنه لا توجد لديه فاصولياء ولا دجاج ولا غيره..

أضاف الشاب الأنيق:

- كله من نسج الخيال..

قال المعاون السابق:

- نعم، ولكن البيك يساعدنا في أعمالنا بإخلاص، ما رأيكم أن نجمع نقوداً ونشتري له هدية.

رحب الجميع بالفكرة، وجمعوا ثماني وستين ليرة، واشترى له المعاون السابق كرسياً مستعملاً يشبه كراسي الملوك، ووضعه بجانب طاولته. في اليوم التالي عندما جاء البيك قال له:

- يا بيك، مكانك على هذا الكرسي، نرجو منك أن تشرفنا كل يوم وتجلس هنا، تشرب الشاي والقهوة على حسابنا، وتقوم بمساعدتنا في العمل..

جلس البيك على كرسيه الجديد، وأحنى رأسه قليلاً، وفي يديه كيسان، أحدهما يوجد فيه خيار والثاني بيض، اشتراهما من السوق، وهو في طريقه إلى الدائرة:

- يا أولاد أحضرت لكم الخيار، قطفته بيدي من الحديقة، وبيض طازج، لكل واحد منكم بيضة.

انفجر الموظفون ضاحكين. وكان البيك أكثرهم ضحكاً، كما انهمرت الدموع من عينيه، والتي ظنها الموظفون دموع الفرح.

قال وهو يسند ظهره إلى الكرسي الملكي:

- رحيم أفندي، أحضر القهوة للزملاء على حسابي، واسأل ماذا تريد فخرية..

- يا سيد صائم، إنك تخطئ دائماً، لا تضع الوثائق في المكان الخطأ، ضعها في المصنف "ك"!

ضحك السيد صائم:

- أمرك يا بيك.

سحب البيك نفساً عميقاً من سيجارته، ورشف من فنجانه بنهم..

الوطن

في مهاجع السجن، لا يصنف المساجين حسب العمر أو النوع فالولد ابن عشر السنوات وأصحاب السوابق ،أبناء الأربعين والمحكوم عليهم بالإعدام أو المؤبد أو المحكوم لثلاث سنوات، الكل في مهجع واحد. هذا النظام يسهل عمل المحكومين بأحكام كبيرة، أي جمع الأتاوات من المساجين بأحكام خفيفة. وبشاعة الأمر أن الأولاد الصغار ينامون ويجلسون وسط الذين لم ينجوا من الحبل أو الخازوق.

لكل مهجع آغا، ومساعد له، والمنتفعون الذين حولهم ولد أو مجموعة أولاد. وآغا آغوات السجن صاحب سوابق محكوم بخمس وعشرين سنة. سجله حافل بالسوابق ومضى على وجوده في هذا السجن عشر سنوات، دخل عدة مرات، العريقون في هذا السجن يعرفون كل ماضيه. دخل السجن لأول مرة في الثالثة عشرة من عمره، ثم غادره، وعاد مجدداً. ومن يكرهه يقول: «أنا أعرف من هو».

أصولاً كان عليهم إرساله إلى سجن ريفي، لأن عقوبته طويلة، لكنهم لا يقدرون، لأنه يطعن رجلاً بسكين أو سيخ كل

سنة أو سنتين في هذا السجن، ولأن القانون ينص على محاكمة المجرم في مكان الحدث، لا يستطيعون إرساله إلى سجن آخر لأنه دائماً تحت المحاكمة.

عندما أفرج عن أحد الأولاد، كان عمره خمسة عشر عاماً وبقي تحت حماية آغا الأغوات ستة أشهر، أرسل إليه: «ليعد بسرعة». و لأن الحياة في الداخل مريحة أكثر من الخارج، استجاب الولد لطلبه، وارتكب جريمة أعادته إلى السجن خلال شهر. كان ينفق في الخارج خلال هذه الفترة القصيرة من المال الذي أرسله له آغا الأغوات. تغير مدير السجن وتسلم مكانه شاب نشيط. وبعد أسبوع أو عشرة أيام قام بدراسة وضع السجن ومن أجل إزالة هذا الوضع السيئ فصل الأولاد الذين في المهاجع أولاً، وضعهم في مهجع آخر، سمّاه (مهجع الصبيان). أصغر الأفراد فيه في الحادية عشرة من العمر، وكبيرهم في السابعة عشرة. ومجموعهم أربعة وأربعون ولداً. عندما يحل الشتاء، ينضم إليهم عدد من المجرمين الصغار ممن ليس لهم مأوى في الخارج.

استضاف مهجع الصبيان شابين جديدين، أحدهما في الحادية والعشرين والثاني في الثانية والعشرين. ونتيجة تدقيق المدير لابد من معاملة هذين كصبيان، غضب الأغوات الذين يعيشون حياة سلطان السلاطين دلي ابراهيم ولكنهم لم يستطيعوا قول شيء علناً، أما الذين تحرك عرقهم الإنساني فقالوا:

- ألا يوجد بقلبه رحمة؟ لا أحد يسأل عن هؤلاء الصبيان، كيف سيعيشون وحدهم في ذلك المهجع؟

قدّم المدير الجديد كمية أكبر من طعام الهلال الأحمر ولم يكتف طيب القلب بهذا، بل أعطى الأولوية للاهتمام بتربيتهم وتعليمهم، وكلف معلماً محكوماً بجرم سيئ جداً ست سنوات، لكنه تحسن في السجن. ماذا بوسع المدير أن يفعل؟ فهو لا يستطيع أن يحضر معلماً من خارج السجن، فاكتفى بالمعلم السجين. وقبل إرساله إلى مهجع الصبيان نبهه بشدة قائلاً:

- افتح عينيك جيداً، لا أريد تصرفات غير مناسبة، ومشبوهة، أو فوضى. وإذا درّبت الأولاد جيداً وبإخلاص، سأضعك في حمايتي.

إن حماية المساجين من قبل المدير أهم من حماية وزير في الخارج. فدمعت عينا المعلم ذي اللسان الرصين، وقال:

- آه.. يا حضرة المدير، لا يمكنك معرفة مدى سعادتي بهذا التكليف، أنا ضحية وأنت أعدت لي عملي مجدداً، كن مطمئناً. سأبذل قصارى جهدي من أجل أولادنا.

بدأ المعلم بداية جيدة. كان يخرج إلى الحديقة من التاسعة حتى العاشرة صباحاً، ومن الخامسة حتى السادسة مساءً، بينما يبقى السجناء الباقون في المهاجع.

علّم الأولاد الأناشيد الوطنية، فكانوا ينتظمون في صفين، ثم يمشون بخطوات منتظمة، يقودهم المعلم، وهم ينشدون، والمدير في الحديقة يتابع تدريبهم.

عندما تقرر فصل الأولاد عن بقية السجناء، ثاروا، وحطموا الزجاج، وجرحوا صدورهم بشظايا الزجاج، فاستنفر كل العناصر في السجن. ولكن عندما تعهدهم المعلم حوّلهم إلى حمل، فخمدت ثائرتهم، في حين لم تكن تنفع معهم العصي والصراخ. إلا أن تأثير المعلم بدا واضحاً فيهم.

تعلم الأولاد نشيدين: «السنة العاشرة» و«يا وطن»، يغنون النشيد الأول، ثم الثاني بصوت عال:

«يا وطن.. لتقف دموعك لأننا كبرنا...».

فعلاً لقد كبر الأولاد، ولكن لا شيء يكسو أجسادهم العارية، سراويلهم ممزقة، نصفهم حفاة، والنصف الثاني ينتعلون ما يشبه الأحذية.

ماذا يفعل المدير؟ لا يملك مالاً ليشتري لهم اللباس والأحذية، ولكنه مسرور بتعليمهم وحفظهم الأناشيد: «يا وطن..لتقف دموعك لأننا كبرنا..».

تمنى المدير أن يأتي مدير عام، مستشار، أو وزير أو أحد كبار الشخصيات لمشاهدة الأولاد المساجين الذين غدوا متعلمين. ليس تباهياً، وإنما ليصدر أحدهم قراراً بمنحهم الملابس والأحذية.

وتحققت أمنيته، لأن معالي الوزير سيأتي لزيارة السجن.
فطلب المعلم على الفور وقال له:

- بعد أربعة أيام سيأتي معالي الوزير ليستطلع الأحوال هنا، عليكم أن تظهروا تقدمكم في تلك الأنشودة..

- أيا منهما؟

- أنشودة «يا وطن». لقنهم إياها جيداً، لا أريد أي خطأ أو نشاز في صوت واحد منهم، خذ فراشك واذهب إلى مهجع الصبيان، لأنك ستنام هناك، علمهم جيداً..

اصفرّ وجه المعلم:

- ألا يمكن إعفائي من النوم في المهجع؟ أذهب إليهم صباحاً وأعود مساءً إلى مهجعي.

- لا ابق معهم هذه الأيام، عليك أن تعتني بهم أكثر.

خفض المعلم صوته وقال:

- لكن يا سيدي قد يخطر ببال أحدهم..أمور ماكرة.

غضب المدير وقال:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ هل يمكن أن يفكروا بشيء من هذا تجاه معلمهم؟

مضى المعلم إلى المهجع، فقال المدير لرئيس السجانين:

- لا تدعوا المعلم يغادر مهجع الصبيان، ليدربهم ليلاً ونهاراً.

في تلك الليلة، اهتزت جدران السجن من صوت الأولاد:

- «يا وطن.. لتقف دموعك لأننا كبرنا ..».

جاء الوزير وبرفقة المدير العام للسجون، ومفتش من وزارة العدل، وثلاثة موظفين رفيعي المستوى لزيارة السجن. أرسل المدير أمراً مع رئيس السجانة إلى الأولاد كي يستعدوا ويخرجوا إلى الحديقة.

وجد المدير الفرصة ليتحدث عن الأعمال التي أنجزها، وكيف قام بعزل الأولاد في مهجع خاص لمنع الفساد، وكلف معلماً بالإشراف عليهم. قص على الوزير حكاية المعلم، أنه ضحية، وطيب القلب، ومتفان في عمله.

استمع الوزير استماعاً طيباً، وأبدى إعجابه بالأعمال التي قام بها المدير، وأراد أن يخرج إلى الحديقة ليرى الأولاد.

في هذه اللحظة جاء رئيس السجانين لاهثاً، وأومأ للمدير كي لا يشعر الوزير بشيء فخرج المدير مسرعاً:

- ماذا هناك؟
- يا أفندي..الأولاد يقولون إنهم لن ينشدوا.
- لماذا؟
- لا أعرف يا سيدي..

إنه يعرف السبب، ولكنه لا يملك الشجاعة ليبوح بالحقيقة. ماذا يعني هذا؟ هل سيذهب تعبنا عليهم سدى؟ نادِ المعلم.

وصل المعلم فقال المدير:

- لماذا لا تريدون أن تنشدوا..

- لن ننشد..

- ماذا؟

لقد قال المعلم: لن ننشد، وهذا معناه أنه يشارك الأولاد رفضهم للإنشاد..

غضب المدير وسأل المعلم ثانية:

- لماذا؟

- هكذا...

لولا وجود الوزير لأدخله الحمّام وأشبعه ضرباً بالعصي.

- لماذا؟..لماذا ؟

- لن ننشد.

- افرنقع من هنا.

نادى المدير الولد الأكبر في المهجع، فقال الولد أيضاً:

- لن ننشد.

كاد المدير يُجَنّ، فنادى أصغر الصبيان، ولد أسمر اللون، أشعث الشعر، مسجون بتهمة سرقة الفحم من الشاحنة، حافٍ، سرواله ممزق. وواضح أنه لا يرتدي لباساً داخلياً، وقميصه يستر أحد كتفيه فقط. فسأله المدير:

- لماذا لا تريدون الإنشاد؟

أطرق الطفل في الأرض ونظر إلى قدميه، وقال:

- لن ننشد..

ضربه المدير وصرخ: لماذا؟

أجهش الولد بالبكاء، ودعك عينيه بأصابعه وقال:

- طبعاً، لا يمكننا الإنشاد ونحن على هذه الحال، منذ أن وضعت المعلم في مهجعنا، لم يصلنا شيء من الأغوات، لا أفيون ولا هيرويين، لقد حرمتنا منهما، اقتلنا لن ننشد. لا قدرة لنا حتى على المشي..

- الله يقهركم..

الوزير في الداخل يقول: لنتجول في بقية الأرجاء.

فقد المدير السيطرة على نفسه فقال لرئيس السجانين:

- أسرع إلى الآغا، وأحضر لهم ما يريدون، حسابهم فيما بعد.

أول من هجم على علبة الهيرويين كان المعلم، بعد ذلك خرجوا جميعاً إلى الحديقة، واصطفوا بشكل منتظم بقيادة المعلم الذي أعطى الأمر:

- إلى الأمام.سر

مرَّ الأولاد أمام الوزير، حفاة، عراة، سراويلهم ممزقة، وبانتظام، الأقصر في المقدمة والأطول في الخلف. أعطى المعلم الإشارة للأولاد فبدأوا ينشدون بحماس: «يا وطن.. لتقف دموعك لأننا كبرنا..».

لم يستطع المدير أن يحبس دموعه، فقال الوزير:

- بالفعل، إنه مشهد مؤثر.

بعد النشيد، نادى الوزير المعلم وقال له:

- لقد أحسنت فعلاً، دربت الأولاد بشكل جيد، وهذا أفضل ما يمكن إنجازه في السجن. أحسنت، سأرسلك إلى سجن آخر تمضي فيه أربعة أو خمسة أشهر لتعلم الأولاد هناك.

قال المعلم:

- تحت أمركم يا سيدي، ولكن هل لي بطلب صغير؟

- ما هو؟

- يوجد هنا ولدٌ، يساعدني كثيراً في التدريب، ومن الأفضل أن أصطحبه معي كي ندرب الأولاد هناك بشكل أحسن..

نحن ناس رياضيون والسلام

إنها المرة الأولى التي أجد فيها مكاناً أجلس عليه في الترامواي. ركبت من مجدية كوي[1] وقبل الوصول إلى شيشلي[2] امتلأ الترامواي إلى درجة تدفق الركاب من الباب والنوافذ. حال الترامواي معروف، رجل يقرأ الجريدة، والجالس إلى يمينه يستفيد منها، والجالس خلفه يمد رأسه مثل الزرافة ليقرأ صفحة الرياضة، فيصرخ غاضباً:

- الويل لأمه.. يا لها من خسارة قذرة لفنار[3].

رفع صاحب الجريدة ظهره المحني، نظر إلى الشاب وقال:

- وهل كنت تظن أنها ستفوز؟

تدخل رجل يكاد يختنق لكثافة الزحام:

- لو كان شعبان في منتصف الملعب لكان من الصعب أن تفوزوا.

صرخ من الخلف شاب نحيل التصق ظهره ببطنه:

---

[1] حي في استنبول

[2] حي في استنبول

[3] نادٍ في تركيا

- عشت يا أخ... وعاشت باشكطاش[٤].

امرأة جميلة لم تتحمل هذا الكلام فصرخت:

- إن فريق باشكطاش مسطول.

فأجابها طفل صغير بصوت ناعم:

- أنت المسطولة.

وفي لحظة توترت الأجواء مثل جو السلطة والمعارضة في السياسة. الضربات تنزل على رأس أحدهم أو على وجه آخر مثل البرق، فتدخل المعاون:

- لقد لعب حبيب في الخلف، وإلا لكان فنار قد سجل أهدافاً أكثر.

رجل أنيق:

- ماذا تقول؟ لو كان عشرة لاعبين مثل حبيب في الملعب، ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ نحن نأكل عشرة مثل حبيب..

قال رجل آخر:

- تاريخه عريق في الفوز.

صاحب الجريدة:

- ألم تر أية محاورة يقوم بها حبيب؟ لا أنسى أبدا قبل سنين في مباريات الدوري كيف أخذ الكرة من منتصف الملعب فحاور وحاور إلى أن وضع الكرة في المرمى.

---

[٤] نادٍ في تركيا.

وضع راكب يده على فمه وأخرج صوتاً غريباً:

- هررررت.. حاور ليرات أبيك.

أحدهم جالس في الأمام، له يد واحدة فقط، انتصب واقفاً مثل الخطيب في صفوف المعارضة منع من إبداء رأيه.

- احمدوا الريح لأنها كانت ضدنا.. وإلا..

- أي ريح؟ إنها ريح الجناح الأيمن جعفر.

- حبيب أب لثلاثة أطفال، مع ذلك يركض في الملعب مثل الثعلب، يسجل الأهداف، ويحرق الشّباك.

- عنده ولدان فقط.

المعاون فجأة:

- هل ستعرف حبيب أكثر مني؟ عنده ثلاثة أطفال، صبيان وبنت.

- اهتم بعملك أنت، كل ليلة نسهر مع حبيب في الملاهي..

فتدخل رجل آخر في الحديث:

- إنكم على خطأ، فالأولاد ليسوا من حبيب.

- ماذا تعني، أولادك؟

- ولاك... ضب لسانك.

- لماذا غضبت؟.. من قبيل الصداقة قلت لك أولادك.. ماذا جرى؟ وربما تقول لي أنت شيئاً آخر، ألا يجب أن تكون بيننا أخوّة؟

قال عجوز خلا فمه من الأسنان:

- لم يعد في الرياضة أخلاق.. على زماننا كنا نقول: ولاك ونقول، كذا ابن كذا، ولا أحد يتحسس، ..كلام عابر..
- هناك فرق بين قول وقول يا عم..لو سّبني أحد بقلب نظيف، لما فتحت فمي، ولكن من أجل أولاد حبيب..
- لم تسمع كلامي للنهاية.. الأولاد من زوج امرأته القديم..

المعاون وستة شباب يتجادلون في عدد أولاد حبيب، وغيرهم يتكلمون عن مرض لاعب آخر..

- لولا مرض زولفو لكنتم رأيتم العجب..
- لا! عندنا مرتضى يخرج خمسين زولفو من كم بنطاله.
- له ماضيه..
- طوووت..
- لا تتكلم زيادة، وإلا ضربتك ضربة تشوش سماك.
- تعال بهدوء.
- عدّ إلى العشرة يا أخ..

وصل الترامواي إلى تقسيم° والمعاون مصرّ أن لحبيب ثلاثة أولاد، ونسي قطع التذاكر، وحتى نسي أنه معاون.

- أنا لا أعرف عدد أولاد حبيب، وأنت تعرف أليس كذلك؟

° حي في استنبول.

- هاه..هاه..لأضحك قليلاً..

فهجم عليه، لكن الزحام الشديد أعاقه فقال:

- لو ضربتك على رأسك ستظن أن الثور نطحك.
- إنك تحتمي بالزحام، لأنني لا أستطيع الحركة..
- انزل تحت.

انقسم الركاب إلى فريقين. فصرخ بهم رجل عجوز ظهره كظهر السلحفاة ويداه ترتجفان:

- ألا يوجد لديكم ذرة عقل؟

فقلت في نفسي: «أوه..هذا العجوز سيعطي كلاً منهم ما يستحقه».

فتابع:

- الهدف الثاني كان ضربة حرة مباشرة مثل العسل، لكن الحكم ليس حكماً.
- ليس على الحكم كلام، يا بيك..

فقال ولد في الرابعة عشرة، جالس لأنه راكب من مجدي كوي:

- أنت تظلم الحكم يا عم.. بهاء مشهور عالمياً.

نحن نعرف كيف صار مشهوراً، لا تفتح البئر، ولا ترى الشر.. لو دخل أبي الحزب الديمقراطي لأصبح مشهوراً عالمياً.

- إنك تتجاوز الحدود..

جاء صوت خشن:

- لا ..في الجامعة أولاً، وفي الترامواي ثانياً... لا مكان للسياسة، يا حضرة السائق. يا أخي السائق انظر إنهم يتكلمون في السياسة، أوقف الترامواي، سأنزل..لن أدخل رأسي في مصيبة.
- من يتكلم في السياسة؟
- ألم تقل أنت، الحزب الديمقراطي؟
- نعم قلت، ماذا حصل؟
- هاه.. سمعتم؟
- لا تخلط السياسة بالرياضة..

فغضب العجوز من الولد:

- قبل أن تكون في بطن أمك، كنت ألعب في فريق الشباب، قلب جناح أيسر. فهمت يا غشيم؟
- واضح..

وصل الترمواي إلى غلطى سراي[٦] والمعاون ما زال يتكلم عن أولاد حبيب. لم يتحمل السائق فمد رأسه إلى الداخل، وحسبت أنه سيقول للمعاون «كفى انتبه إلى عملك» لكنه سأل:

- من يشجع فنار هنا؟

---

[٦] حي ونادٍ في استنبول.

أحد الركاب:

- ماذا هناك؟ ألا يعجبك؟ أنا مشجع فنار. ماذا سيحصل؟

فقال السائق بعد نفس عميق:

- انزل، لا أحمل على الترامواي مشجعي فنار..

الراكب:

- غباء مني أن أركب ترامواي سائقه يشجع باشكطاش.

ونزل من الترامواي.

ركب مراقب التذاكر، فقلت في نفسي: أوخ.. تمام، الآن سيرى أن المعاون لم يقطع تذاكر من مجدية كوي إلى هنا .

أحد الركاب المتحمسين قال:

- فاز باشكطاش على فنار بطريقة الدببة.

صرخ السائق:

- فشر..من قال؟..من قال هذا الكلام؟

خنس الرجل خلف راكب ضخم خوفاً من أن ينزله السائق.

- فاز فوزاً عظيماً. ألم تشاهد كيف سجل مستان الهدف من خط الجزاء؟

- انتبه إلى عملك أنت.

- بشرفي لحبيب ثلاثة أولاد.

- وهل رأيت وجه حبيب في حياتك؟

- العمى..أتكذبني؟ هل سمعتم أيها المواطنون؟ اشهدوا، إنه يحقرني علناً، سأرفع عليه دعوى.

المراقب:

- ماذا هناك؟ فنار حتى الآن خسر مع باشكطاش عشر مرات لكن فاز عليه أكثر من خمسين مرة..

المراقب مشجع لفنار، والمعاون مشجع لباشكطاش. فصرخ السائق:

- هل ستخيفني بكتابتك مخالفة؟ اكتب ما شئت، عاش باشكطاش.. عاش باشكطاش..

ضرب المعاون رأس أحد الركاب بعلبة التذاكر، وضرب العجوز الولد بمحفظته وأمسك بعنف أحد الركاب من مشجعي باشكطاش.

جاءت الشرطة على الصراخ، وسأل أحد عناصرها المراقب:

- يدعون أن الهدف الثاني لفنار تسلل..!

- ماذا يجري؟

- أي غبي يقول هذا؟!

فقال أحد المجتمعين حول الترامواي:

- لم يكن تسللاً، لكنه كان ملعوباً باليد مثل كرة السلة.

رجل آخر:

- هيش..ألم ترَ لعبة كرة السلة في حياتك؟

فقال شرطي من مشجعي غلطى سراي.

- هيّا إلى المخفر..

الكل يشكو من الآخر، سجلوني شاهداً، وذهبنا إلى المخفر، فسألني مفوض الشرطة:

- من أين أنت؟
- من أرضروم[٧].
- لم نسأل عن بلدك، أي فريق تشجع؟
- لا أشجع أي فريق..
- الله.. الله.. من أي نادي أنت؟

لا بد أن تكون من ناد ما، ولو أني أعرف نادي مفوض الشرطة لذكرته.

استعنت بالله وقلت:

- أشجع فنار..
- أحسنت، تعال إلى جهتي.

وبعد تصنيفنا حسب الفريق الذي نشجع، سأل أحد المتشاجرين.

- قل لي ماذا جرى؟

قال الرجل الذي أصبحت عينه بنفسجية من ضربة مباشرة عليها:

---

[٧] محافظة في تركيا.

- ركبت الترامواي من مجدية كوي لأذهب إلى عملي. وكنت سأنزل في تقسيم.
- لماذا لم تنزل؟
- كيف لي أن أنزل، وهناك حديث عن كرة القدم، اندمجنا، وأحدهم قال إن مظلوم لاعب فنار دخل المباراة بدون شهادة!

نهض مفوض الشرطة غاضباً:

- بدي ألعن...من سيقول حرفاً على مظلوم.

تسللت من هناك بهدوء وتابعت طريقي..

يا عمي نحن ناس رياضيون والسلام.

KMH

مؤتمر الأطباء

أقيم مؤتمر الأطباء العالمي في مدينة لبليكس. في ذلك العام أعطى معظم أطباء العالم أهمية خاصة لمؤتمر الأطباء العاشر، وشارك فيه أطباء مشهورين، ولم يكن المؤتمر مزدحماً كالازدحام الذي نراه في مباريات كرة القدم أو كالازدحام الذي يحدث عند رؤية نجمتنا الشقراء الشهيرة أو ظهور عارضة الأزياء السمراء وهي تتبختر في عرض ثيابها الداخلية على المنصة.

ومع ذلك فقد امتلأت قاعات المؤتمر بالصحفيين والمراسلين الإعلاميين الذين جاؤوا لنقل وقائع المؤتمر الطبي الذي سيقوم فيه ثلاثة وعشرون طبيباً من أقطار مختلفة بعرض آخر ما توصلوا إليه من اختراعات.

وقد كان من بين هؤلاء الأطباء من يستطيع تفكيك الجسم البشري إلى قطع صغيرة كما يفعل الساعاتي عندما تأخذ له ساعة معطلة تريد إصلاحها، فيفككها قطعة قطعة، ثم يعيد تركيبها من جديد.

لهذا فقد خصصت الصحف العالمية عدة اسطر لهذا المؤتمر بعد أخبار موضة المايوهات في ذلك العام، وأخبار كرة القدم، وأخبار الجرائم المخيفة.

افتتح المؤتمر في اليوم الأول.

واليـوم الثـاني كـان عبـارة عـن كلمـات ألقاهـا المحاضـرون بمناسـبة افتتاح المؤتمر. أما اليـوم الثالـث فقـد بـدأ فيـه عـرض المهارات والابتكارات، وأول من تقـدم بعرضـه، الـدكتور الأمريكـي المشهور (جورج كلا سمان) جاء إلى المنصة مع رجـل بينمـا كـان الصحفيون ممسكين بأوراقهم وأقلامهـم يـستمعون بانتبـاه، أمـا الأطبـاء الآخـرون، فقـد كـانوا جالـسين علـى كراسـيهم، واضـعين السماعات في آذانهم، جاهـزين للاستماع إلى ما سيقوله الـدكتور الأمريكي عن اختراعه. كلامه يترجم إلى أربع لغات. قال الدكتور الأمريكي كلا سمان:

زملائي الأعزاء:

في هـذا المؤتمر سـأقدم إلـيكم أغـرب حـدث في اختـصاصي منذ خمسة وثلاثين عاماً.

كلكـم تعرفـون جيـداً أنـه لا يـستطيع أي طبيـب حتـى الآن أن يغيّـر بـصمات اليـد، وتـاريخ الطـب لم يـشهد حـدثاً مثـل هـذا. فمهمـا سـلخ جلـد الإنـسان سـوف تظهـر لـه بعـد فـترة نفـس البصمات. لذلك تجد الشرطة اللص والمجرم من بصمات يده.

في آخر اختراع لي، استطعت أن أغير بصمات يد هذا الرجـل الذي ترونـه أمـامكم، إنـه رجـل أعمـال مشهور في أمريكـا الـسيد توماس ولفيه (كاسر الفكين). هكذا جاء في سجله. بحثت عنـه الشرطة الأمريكية عشرة أعوام، ولم تعثر له على أي دليل، لأنـي كنت أغير بصمات يده بعد كل سرقة، فتبديل بصمات اليد أربـح عمل في العالم.

فكروا إنكم تتقاسمون الأموال المسروقة مع السارق مقابل تغيير بصمات يده، هل قليل هذا الربح. والآن سأشرح لكم طريقة تغيير البصمات...

عند انتهاء الدكتور كلا سمان من شرح اختراعه اتفق كل الأطباء الموجودين على أنه أفضل طبيب في هذا المؤتمر.

لكن الطبيب البريطاني ب. ليانس الذي صعد إلى المنصة من بعده غير قناعتهم بسرعة، حيث جاء مع شخص إلى المنصة وقال:

زملائي الأطباء سأحكي لكم أغرب حكاية حرب كتب عنها تاريخ الطب.

إن هذا الرجل هو الملازم (ماتو) الذي قتل ستة وعشرين شخصاً من جيش العدو في الحرب العالمية الثانية، ولكن مع الأسف قنبلة طائشة رماها العدو فصلت رأسه عن جسمه. وقد قمت بواسطة معجون خاص اخترعته، بإعادة وصلهما إلى بعضهما وأصبح أفضل مما كان عليه، والآن لو أصابته قنبلة ذرية بدل اليدوية فمن المستحيل أن يفترق رأسه عن بدنه من نفس المكان. والآن سأشرح لكم كيف يصنع هذا المعجون...

كل الأطباء الموجودين مندهشون من اختراع الطبيب البريطاني وهو يشرح لهم كيف يصنع معجونه العجيب، متفقون على أن اختراعه هو قمة الاختراعات. لكن صعود الطبيب الفرنسي مع فتاة شقراء فاتنة الجمال، غيرت وجهة نظرهم، إنها ترتدي (المايوه) فقط.

قال الطبيب: زملائي الأعزاء،

سأروي لكم قصة اختراع لم يتوصل إليه الطب التجميلي. فهذه الفتاة التي ترونها في (المايوه)، وقد جعلتكم تبتلعون ريقكم، هي حماتي التي تجاوزت الخامسة والستين من عمرها.

وبدأ الطبيب الفرنسي بإخبارهم عن قيامه بإجراء عملية تجميل لهذه العجوز، وجعلها حورية فاتنة، يعيش معها حياة المتعة لينتقم من زوجته التي تخونه، وتابع شرحه عن كيفية قيامه بهذه العملية...

استمر المؤتمر مع مضي أيامه في عرض ما يذهل العقول من آخر الابتكارات في عالم الطب.

جاء الطبيب الألماني إلى المنصة وقال:

عندما يموت الإنسان لا تموت كل أعضائه فوراً، فإذا مات الإنسان من مرض القلب، فالأعضاء الأخرى تكون صالحة. ومن يموت من الحمى فتموت رئتاه فقط، ومنه فإني لم أجد أن فكرة موت إنسان بكامله، لأن أحد أعضائه قد توقف، لذلك جمعت الأعضاء التي لم تمت من عدة جثث وصنعت إنساناً جديداً (هذا هو..)

أشار الدكتور الألماني إلى رجل ضخم وقال:

رجلاه أخذتهما من عداء سابق مات من الزائدة وصدره أخذته من مصارع مات من مرض في الدماغ ورأسه لأحد

مرضى الحمى. فهو صنع إنسان من أعضاء لم تمت كأنه يصنع طاولة أو كرسياً...

وكان آخر يوم في المؤتمر ولم يتبق سوى طبيب واحد جالس في زاوية وحده، يستمع إلى ما يلقيه الأطباء من اختراعات، فقال له رئيس المؤتمر: يا دكتور ألا يوجد عندكم إنجاز أو اختراع تقدمونه.

قال الدكتور الذي لم يتكلم حتى ذاك الحين: عندي، لكن ليس لدرجة مهمة بحيث أقدمه للمؤتمر العالمي. جاءت أصوات من القاعة:

- فليكن، نريد أن نسمعك.
- يجب أن يتكلم كل من شارك في المؤتمر.

جاء الطبيب إلى المنصة وقال:

- طيب، سأروي لكم قصة استئصال لوزتي لشخص... ضحك المشاركون في المؤتمر لأنهم تحدثوا عن أغرب الاختراعات وهو يريد أن يتحدث عن مسألة كهذه.

غضب الطبيب وقال:

- لا تقولوا استئصال لوزتي وتمضوا..

تضاعف الضحك

- هل استئصال اللوزات عمل مهم؟
- أنا لا أضع يدي في عمل كهذا.

- يجب على الطبيب أن يخجل عند التكلم في مسألة كهذه.

غضب الطبيب الواقف على المنصة وقال:

- هل تعرفون ماذا يعمل الرجل الذي استئصلت لوزتاه؟

- فليكن الأمين العام للأمم المتحدة، فاللوزات تبقى لوزات.

احمرّ وجه الطبيب فغدا كوجه ديك الحبش وصرخ:

- كان صحفياً..

أجابه الأطباء وهم يضحكون:

- فليكن صحفياً أو تاجراً أو موظفاً أو جندياً.. الكل واحد.

الدكتور:

- نعم يا سادة لكن في تلك الفترة، كان هناك مرسوم يقضي بمنع الصحفيين من فتح أفواههم، فاضطررت إلى إدخال يدي من مكان آخر واستأصلت لوزاته.جمدت ضحكات المشاركين فجأة، وبدأ الإعجاب يظهر مكان السخرية، صفقوا له طويلاً وانتخب في التصويت، أن أهم اختراع في المؤتمر العاشر هو (استئصال اللوزات).

الطَّابور

مررت على دائرة البريد الجديدة، وأنا قادم من مخزن بيع السلع المحلية في بهجي قابي[8]، فرأيت زحاماً وكأنه يوم المحشر طابور، ولكن ليس الطابور الذي نعرفه لا ثلاثة ولا خمسة ولا سبعة أرتال أكثر من ذلك، مثل ذيل الحصان. أرتال متداخلة ببعضها . كل سيارة تأتي تخفف السرعة، السائقون يضربون بأيديهم على زمامير سياراتهم، توت.. توت، ويصرخون:

- هل هنالك ضرورة لِمَنْعِ التزمير؟!
- أي زمُور؟ لو انفجرت قنبلة لن تفكك هذا التجمع. السيارات تمشي خمسة أمتار كل خمس دقائق.
- انظر أمامك!
- انظر خلفك!
- هل تبقَّى أمام أو خلف؟
- ادخلوا إلى الطابور..

---

[8] بهجي قابي: حي في استنبول.

- عن أي طابور تتكلم يا أخ ؟!
- أي واحد تريد ؟...
- يا أخي، لم يتعلم الناس الحضارة حتى الآن، ونحن نعيش في القرن العشرين. ما معنى القرن العشرين؟! يعني الحضارة؟ ماذا تعني الحضارة؟! القنبلة الذرية أولاً، والطابور ثانياً. عليك أن تختار أحدهما ولا خيار ثالثاً لك.
- انظر أمامك!... هيش..
- لا .. ليس هذا فقط، عندما تقول الحضارة، يدخل فيها النايلون والبلاستيك، و يدخل فيها اللباس الداخلي. هيش .. هل أنت أعمى؟!
- وضعت قدمك على كتفي..!
- لماذا لم تذكر المسكة؟ عندما تذكر الحضارة، اذكر المسكة أيضاً.

رفسة ثم تدحْرج.

- لا تدفش وْلأَكْ ..
- أنا أعرف وأقول هذا، أننا لن نصبح بشراً حتى نتعلم الوقوف في الطابور.
- أوف.. يدفشون من الخلف، على مهلكم يا شباب.

شاب أزعر:

- ابتعدوا.. أحمل زيتاً.

في الطريق، حيث لم يعد هناك ممر، جاء رجلان يحاولان شق طريقهما في الزحام. سأل أحدهما زميله:

- ما هذا الطابور؟

- نُطلّ لنرى، أي طابور هذا؟.. فعلت مثلما فعلوا، ورغم عملي وقفت في الطابور.

- الله يرضى عمن أوجد هذا الطابور.

- لا تنسَ السرفيس. الطابور أولاً والسرفيس ثانياً.

عجوز واقفة أمامي تسأل:

- ما هذا الطابور ؟

- وجدتِ طابوراً، والآن تسألين ما هذا الطابور؟ طابور...

- صحيح، ادخلي فيه، إنهم يوزعون شيئاً بالتأكيد.

- ما هذا الطابور يا حبيبي؟

من يسأل السؤال يجيب بعد قليل على السؤال نفسه.

- الطابور.. آه.. ما هذا الطابور ؟

شرطي في أول الطابور، و شرطي آخر في نهايته يصرخان دون توقف:

- على مهلكم يا عالم..

- ادخلوا في الطابور.. ادخلوا..

- لنعط طريقاً للسيارات.

نتقدم خطوة خطوة، وعندي موعد في الساعة التاسعة، ولكن فات الأوان، لقد أصبحت الساعة العاشرة.

- سيدي أتيت بعدي، وتقف أمامي، لا تتملعن علينا..
- ما المناسبة؟ سيادتك الذي يتملعن، منذ الساعة السابعة وأنا هنا، جاء الناس ودخلوا قبلي، ثم دخلوا،ودخلوا، فقلت لأكون مهذباً، ولكن هذا لا ينفع.

مواطن من طابور قريب منا يسأل:

- عفواً، ماذا يوزعون هنا؟
- والله لا أعرف، منذ ساعتين وأنا واقف.
- هناك من يقول دولاب سيارة، وآخر يقول غاز..
- وماذا أفعل بدولاب السيارة؟
- هل يوزعون الدواليب الأربعة؟
- لا أعرف، من يدخل إلى قلب الطابور لا يخرج.
- ماذا يجري إذاً؟
- يخرجونهم من الباب الخلفي، كي لا يزيد الزحام؟

أصبحت الساعة العاشرة والنصف والزحام يزداد..

- إذا كانوا يوزعون الدواليب، سيطلبون البطاقات، ومن لا يحمل بطاقته الشخصية لن يعطوه الدواليب.

- بطاقة من الحزب الديمقراطي؟ الحمد الله، كلنا ديمقراطيون.
- أما إذا كانوا يوزعون الغاز، فكلنا سنحترق..
- فليوزعوا.. كل شيء مقبول، المهم أن يوزعوا.
- إذا أعطوك الغاز، هل ستضعه في جيبك؟ لم نحضر معنا وعاء.
- خذ الرقم أولاً، ثم اذهب إلى البيت لتحضر السطل أو التنكة.
- هل يعطون الأرقام أولاً؟
- وهل سيوزعون الغاز دون أن يعطوك الرقم. ما هذا التساهل؟ للمرة الألف قلت لك لا تدفش.
- عفواً.. إنهم يدفشون من الخلف.
- لدي عمل.
- لدى البيك عمل! الله الله.. أنت لديك عمل، ونحن جئنا لمضيعة الوقت؟ الكل لديه عمل، لن تنفجر.. انتظر دورك..
- ترى هل سنحصل على ما يوزعونه قبل عطلة الظهر[٩]؟

[٩] في تركيا يعملون حتى الساعة 12 ظهراً، ويعطلون حتى 1,30 ثم يبقى الدوام حتى 5 مساءً.

- لا أظن. لا تدفش، اركب على ظهري بالمرة..
- لا أحد يقدر كبيراً ولا صغيراً..! لم يبقَ أخلاق ولا تربية.
- على ما أظن ،تجاوزتم الأربعين ؟
- لماذا تسأل؟
- بعد أن يتجاوز المرء الأربعين، يظن أنه لم يبقَ أخلاق و تربية إلا عنده..
- ماذا سنأخذ؟ ماذا يوزعون؟
- أنسولين..
- أنسولين؟! ما هذا؟
- دواء قاطع لمرض السكر.
- آآآ.. ماذا سأفعل به؟! لا أريد..
- أوف يا أخ، ما معنى ماذا سأفعل به؟ خذه من هنا وبعه من هنا. يوسف أفندي أصبح غنياً من دخوله في الطوابير. خذها بليرتين ونصف من هنا، وبعها هناك بخمس وعشرين ليرة وسيقبِّلون يديك لذلك.
- هل تعرفون؟ ستتاح فرصة عمل جديدة في تركيا..
- طبعاً..لا تقل طابور وتمشي يا أخ، هناك من عمّر بناية من وراء الوقوف في الطابور.
- ارفع يدك عني.

- ابتعد أنت من تحت يدي. ما هذا الرجل؟ لا حول ولا..
- عفواً يا أخ، ماذا يوزعون في هذا الطابور؟
- الدولة توزع أقمشة.
- أقمشة ماذا؟
- كل شيء أمريكي في هذا الوقت يا أخي، فماذا سيكون القماش؟ طبعاً أمريكي.
- لا يوزعون القماش، فلا تتكلموا من عندكم.. إنهم يوزعون الإسمنت.

غضبت العجوز الواقفة أمامي وقالت:

- لا قماش ولا ملح ولا غاز.. ألم تسمعوا المذياع؟
- سمعنا، نعم، ماذا قال؟
- لقد منع رئيس الوزراء كل الطوابير، ما عدا طابور القهوة، لا طابور إلا من أجل البن.

كلمة البن أصبحت على كل لسان. كل الطوابير بدأت تترنح مثل الحمار الذي تقف عليه ذبابة الحمير.

- من أجل البن؟، هاه، سأنتظر يومين، ولن أذهب دون الحصول عليه.
- البن، البن.. هناك إذن طابور البن فقط. أما الطوابير الأخرى ستعاقب.
- ماذا؟

- لأن المعارضة تدخل الطابور، من باب الفساد، حتى لو لم يكن هناك ما يوزَّع، لكي يقولوا أن البلد في مجاعة.
- هل ممكن أن يكون هذا الطابور لعبة معارضة؟
- لا يا روحي، أُنظر إليه، يوجد شرطة في بدايته ونهايته.

الساعة الحادية عشرة.. بقي عشر خطوات حتى باب الدكان. ولأن الباب يغلق بعد الدخول، لم أرَ ماذا يوزعون.

- هل يعطون الكثير؟
- خمسون غراماً.
- لا أظن. لو أعطوا خمسين غراماً لكل مواطن، لن يبقى في البلد بن.
- لن أنتظر كل هذا الوقت، من أجل خمسين غراماً من البن.
- عندما تجد خمسين غراماً من البن قبِّل يدك، وضعها على رأسك. هل تعرف ما معنى خمسين غراماً من البن؟ لو خلطتها مع كيلوين حُمّص يصبح عندك كيلوان وخمسون غراماً من البن مثل المسك.

صديقان يقول أحدهما للآخر:

- ليس لدي نقود، أعطني ليرتين ونصفاً.

- أعطيك، لكن ليس ديناً، بل تعطيني نصف البن الذي ستحصل عليه.

هناك من يصرخ، وهناك من يندعس، ومن يرمي علبته، يدفشون من الخلف، و هكذا حتى وصلت الدكان.. سأل البائع العجوز الواقفة أمامي:

- أي قياس تريدينه؟
- قياس ماذا؟
- وهل ستكون دون قياس؟ لدينا عمل يا سيدتي، قرري فوراً.
- هل توزعونها مطحونة؟ أعطني النوع الناعم يا ولدي.
- النعومة والخشونة واحدة يا خالة، و لكن منها ما هو بشعر طوله بطول الإصبع.
- آ آ آ. لم أرَ منها بشعر أبداً. هل كبرتُ كثيراً؟ هل هناك بن بشعر؟!
- بن ماذا؟! كم القياس الذي تريدينه؟
- خمسة وثلاثون، ولكن لتكن من الأمام واسعة.
- جاءنا البلاء..
- ألم تقل حذاء؟
- برنيطة يا خالة، برنيطة.

أخرجها البائع من العلبة فتعجبت العجوز وقالت:

- ماذا أفعل بالبرنيطة؟ عداك عن كونها رجالية، برنيطة الطابور أرخص، هات واحدة لآخذها للولد .. بكم؟
- ثمان وستون ليرة، وثلاثة وسبعون قرشاً.
- دفعت العجوز، وأخذت برنيطة بنية. وجاء دوري.

البائع:

- إنتاج ايطالي يا سيدي، لن تجدها غداً في مثل هذا الوقت، وبهذا السعر.. ولكن بسرعة لو سمحت.
- لم أرتدِ برنيطة لا في الصيف ولا في الشتاء. اشتريتها بناءً على أنّ البرنيطة في الطابور أرخص.

صرخ رجل من الخلف خائف من أن تنتهي البرنيطات قبل أن يصل إليه الدور:

- أربعة، واحدة قياس ستة وخمسين، وثلاثة قياس سبعة وخمسين. ألا يوجد لون رمادي؟ ليكن رمادياً أو بنياً.

دفعت النقود وأخذت البرنيطة، وطبعاً لا يوجد طريق للرجوع، فصعدت الدرج وخرجت من الباب الخلفي إلى الشارع الآخر.. الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً.

نسيت تعبي من سعادتي بشراء البرنيطة، وتجولت حتى المساء والبرنيطة معي في علبتها. جئت إلى قدي كوي[10] في

[10] قدي كوي: حي في استنبول

الساعة الخامسة لأركب السفينة، وعند شرائي البطاقة ناداني أحدهم:

- حسن..

التفتُّ، فإذا صديقي برهان (زير النساء) _ صديق قديم طُرد من المدرسة الإعدادية لقلة أدبه_ اسمعوا لأجل ماذا طرد، كان يضع مرآة إلى جانب مقعده ويشاهد سيقان المدرسات، وعندما كشفوه، طردوه من المدرسة، ولم أره منذ فترة طويلة.

- أوو.. كيف حالك يا برهان؟
- شكراً.. جيد جداً.
- ماذا تعمل؟
- بالدعايات.
- دعايات ماذا؟
- أي شيء.. أبيع بضائع التجار التي لم تبع عندهم. اليوم بعت لتاجر تسعمائة وسبعين برنيطة.

أثارت انتباهي كلمة برنيطة. فسألت:

- كيف تبيعها؟
- سهل جداً، في يد الرجل بضاعة لم يستطع بيعها منذ ثلاث سنوات، والكل يعرفني في السوق، فجاء إلى مكتبي واتفقنا على خمس وعشرين في المائة لي. بعت البضاعة كلها قبل الساعة الثالثة، بارك الله فيه، أخذتُ ثمانمائة

ليرة، كنت سآخذ تسعمائة، لكن الشعب المتجمهر كسر زجاج المحل، فتقاسمنا الضرر.

- طيب يا برهان. ماذا تعمل لتبيع البضائع؟
- سهل جداً. أستأجر خمسة عشر إلى عشرين عاطل عن العمل بليرتين أو ثلاث، ويشكلون طابوراً أمام الدكان، في أقل من نصف ساعة، كل من يرى الطابور يدخل فيه، وتعرف أن شعبنا يثير فضوله الطابور. ثم أبدأ بالبيع..وعندما انتهت البرنيطات هذا اليوم كسر الشعب الزجاج، لأنهم انتظروا ساعات طويلة، ولم يحصلوا على برنيطة، وكادوا يحرقون الدكان، إنهم كثيرون يا أخي حسن.
- نعم.
- أكثر مما تتصور، الجدبان كثيرون جداً.
- كيف لي أن لا أعرف؟ هناك جدبان كثيرون.
- والحمير كثر.
- نعم يا أخي.
- لو رأيت المجانين.
- لا داعي، إنني أعرف.
- الجدبان عندما يرون الطابور، يدخلون فوراً..
- هل كانت البرنيطات رخيصة.

- لا يا روحي. من البرنيطات التي تباع في المحلات.

(الجدبان) أثاروا فضولي أكثر من البرنيطات. بقي للسفينة ربع ساعة.

- تعال معي لأريك البرنيطات في المحلات.

وعندما نظرت إلى واجهة الدكان، رأيت برنيطات كثيرة مثل التي معي، وسعرها ثمان وستون ليرة وثلاثة وسبعون قرشاً.

- يعني أن المواطنين لا يأتون إلى هنا ويشترون البرنيطة بنفس السعر بكل راحة وهدوء، بل يدخلون الطابور، و يدعسون بعضهم، وتطلع أرواحهم، فعلاً الجدبان كثيرون. غداً سأبيع في حي مربوطجي[11] النراجيل، لدى تاجر ألف نرجيلة قديمة لم يستطع بيعها.

- وهل يشترون النراجيل أيضاً؟

- الجدبان لا يشترون النرجيلة فقط، بل أحياناً يشترون النربيش وحده، المهم أن يدخلوا في الطابور، لكني خائف من شيء واحد.

- ما هو؟

- إن ألف نرجيلة لا تكفيهم، ربما يكسرون الزجاج.

وفي طريقنا إلى السفينة سألني برهان:

- ماذا يوجد في العلبة التي تحملها؟

---

[11] مربوطجي: حي في استنبول.

(اسم الدكان مكتوب على العلبة) لذلك أخفيتها ورائـي وقلـت له:

- لا شـيء، اشتريت حذاءً.

وعنـد وصـولي إلى البيـت وضـعت البرنيطـة علـى الطاولـة، ونظرت إليها، كم أنا أحمق، وحمدتُ ربي، لـو لم يقـل لي برهـان، لكنت دخلت الطابور في اليوم التالي، واشـتريت نـربيش نـرجيلة، ماذا أفعل به؟

أين سأستخدمه...

كم عدد أسنانها؟

البلاء يبحث عن الإنسان ويلبسه. خرجت من البيت صباحاً أبحث عن الراحة، لا أعرف إلى أين أذهب. ركبت السفينة المتوجهة إلى يالوى[١٢] على أساس أن جو البحر يريح الأعصاب.

تحركت السفينة، وابتعدت عن الميناء، وكلما ابتعدت كنت أشعر أن حملاً ثقيلاً ينزاح عن ظهري شيئاً فشيئاً.

جاءني صوت: عفواً يا بيك.

التفت إليه، رجل في الأربعين، ملابسه أنيقة، هيئته رصينة.. يعني أفندي.

- استغفر الله يا سيدي. تفضل.. قلت له.
- أولاً. أعرفكم على نفسي، عباس توتوشور.
- تشرفنا، وأنا حسن أغيرال.
- سررت بمعرفتكم، يا سيدي.

إنه رجل لطيف.

---

[١٢] حي في استنبول.

قال:

- أحب الرهان لدرجة المرض.

نظرتُ إليه لأرى هل يسخر مني، إلا أنه لم يضحك.

قلت له:

- ممكن، كل واحد له هواية.

- هذه أكثر من هواية، في اليوم الواحد إذا لم أراهن خمسة أو عشرة أشخاص لن أستطيع النوم ليلتها.

الإنسان المراهن يثير غضبي كثيراً.

- هل تربحون دائماً؟

- أحياناً أربح وأحياناً أخسر، لا تهمني الخسارة أو الربح، المسألة مسألة ذوق، مسألة هيجان يا سيدي، مثل الرياضة، فهمتم طبعاً.

- أفهمكم يا سيدي.

- هل سببت لكم الإزعاج؟

- بالعكس. سررت لمعرفتي بإنسان غريب.

- هذا لطف منكم.

فكرت كيف يمكنني أن ألقن هذا الرجل درساً.

- إذا شئتم نتراهن معكم لتمضية الوقت.

- على ماذا؟

- على ما ترونه مناسباً، مثلاً.. كم عدد أسنان السيدة التي تجلس أمامكم؟

- اخفض صوتك، قد تسمعنا.

تجلس في المقعد أمامي سيدة عمرها بين الثلاثين والأربعين، وهي جميلة جداً.

- إذا عرفتم عدد أسنانها، سأدفع لكم ألف ليرة، وإذا لم تعرفوا، تدفعون لي خمسين ليرة.

- موافق.

خمسون ليرة مقابل ألف ليرة، رهن جيد جداً.

- والله لا أعرف، أني لا أعرف عدد أسنان زوجتي، فكيف لي أن أعرف عدد أسنان سيدة لا أعرفها؟

- ليس الغاية أن تعرف، إنما لتمضية الوقت. سأمنحكم فرصة أخرى. أنتم تقولون ثلاثة أرقام، وإذا عرفتم تربحون ألف ليرة.

وحتى أمكّن الخازوق، قلت له:

- وأنت هل ستقول رقماً؟

- وهل من الممكن أن لا أقول؟ بعد أن تنتهي أنت أقول أنا.

- وإذا لم تعرف؟

- إذا لم نعرف لا أنا ولا أنت، نكون كلانا خاسرين.

- المعنى؟

- لا أنتم تدفعون لي خمسين ليرة، ولا أنا أدفع لكم ألف ليرة.

الألف ليرة دوختني. كنت أريد أن آخذ نقود هذا الأجدب كي ألقنه درساً يتوب فيه، فقلت له:

- هذا ليس عدلاً.
- لماذا؟
- أنا أقول ثلاثة أرقام، وإذا لم أعرف أدفع لكم خمسين ليرة، وأنتم تقولون رقماً، وإذا لم تعرفوا تدفعون لي ألف ليرة، لأنكم خسرتم الرهان.
- طيب.. هيا قُل أرقامك.
- لا.. انتظر، لن أقول فوراً، سأحسب، لأن في نهاية الرهان ألف ليرة تنتظرني. عليَّ أن أفكر جيداً.
- وإذا كان في فمها أسنان صناعية؟ وإذا كانت كل أسنانها موجودة؟.
- وقتها يسقط الرهان. الأسنان الصناعية خارج الرهان.

نظرتُ إلى المرأة، وكأن عيوني تطلق أشعة، أحاول عدَّ أسنانها من خلال شفتيها المغلقتين. أولاً يجب أن اقدّر عمرها. وبدأت أتذكر معلوماتي البيولوجية. الأسنان اللبنية تسقط وينمو مكانها.

- انتظر قليلاً، يكون لفتاة شابة ثمانية وعشرون سناً، وبعدها ينمو أربعة أضراس عقل، فالعدد اثنان وثلاثون.

وبينما كنت أحسب، فتح عباس توتوشور جريدته وبدأ يقرأ.

كم عدد أسنان هذه السيدة؟ لو كان تشارلك هولمز لما عرف. على الأقل عمرها ثلاثون، وعلى الأكثر أربعون. لو كان عمرها ثلاثين، لا حول ولا.. الحساب لا يتحمله العقل.. أخرجت قلماً وورقة ورسمت الفكين السفلي والعلوي، واثنتين وثلاثين سناً. الأفضل أن أحسبها حسب أسناني، والغريب أنني لا أعرف عدد أسناني، سألت عباس وهو يقرأ جريدته:

- هل معكم مرآة؟

أخرج مرآة من جيبه وأعطاني إياها. فتحت فمي، في الفك السفلي واحد، اثنان، ثلاثة، الناب خزف، وإلى جانبه جسر، أربعة، خمسة.. والسن الذي بعده مكسور، كسره رضا المسمار عندما كنا في المدرسة، سبعة، ثمانية، في الجانب الثاني ثمانية، ولكني قلعت واحداً العام الماضي وبالتالي خمسة عشرٍ.

أدخلت المرآة كي أعدّ الأسنان في الفك العلوي، ستة عشر، سبعة عشر، لدي ستة وعشرون سناً، عمري أربعون، هل للنساء أسنان أكثر من الرجال؟

سألت عباس:

- لا تحسب الأمر غشاً، سأسألك سؤالاً.

- تفضل اسأل.

KMH

- كم عدد أسنانك؟
- تسعة وعشرون.
- كم عمرك؟
- خمس وثلاثون.
- شكراً.

مرة أخرى غطّ في جريدته. أريد أن أحدد عمر المرأة بدقة. والآن أملك دليلين: عدد أسناني وعدد أسنان عباس توتوشور، واعتماداً عليهما أردت تحديد عدد أسنان المرأة. كتبت على الورقة عمري وعدد أسناني وعمر عباس وعدد أسنانه وبدأت الحساب. إذا كان لرجل عمره أربعون عاماً ستة وعشرون سناً، ورجل عمره خمسة وثلاثون لديه تسعة وعشرون سناً، معنى هذا أن سيدة في الثلاثين كم سيكون عدد أسنانها؟ إذا كان الإنسان قوياً في الحساب، سيكون ناجحاً في الحياة اليومية حتماً.

لكن هذا لا يكفي لمعرفة عدد أسنانها، يجب أن أعرف عدد أسنان الآخرين.

اقتربت السفينة من جزيرة قينالي[١٢]، سألت عباس المشغول في الجريدة:

- لا تؤاخذني على الإزعاج، يوجد سؤال آخر.

---

[١٢] قينالي: جزيرة قريبة من استنبول.

- اسأل.
- ممكن أن أخرج من هنا قليلاً؟
- طبعاً.. لكن أعرف عدد أسنان السيدة قبل وصولنا إلى يالوى.

خرجت فوراً، وذهبت إلى رجل يقف بجانب العمود. ليس أمامي سوى أن أكون مفتوح العينين، وضعت يدي على فمي وقلت:

- آخ..آخ..

الرجل:

- ماذا هناك يا بيك، هل سنكم يؤلمكم؟
- لا تسأل يا أخ، وأي ألم؟ بقي سن في فمي، كم عدد أسنانك؟
- لا أعرف.. في العام الماضي قلعت اثنين، إنني أعرف ألم الأسنان.
- افتح فمك لأراها.

فتح الرجل فمه فحسبتهم فوراً:

- ما شاء الله، لديكم ثمان وعشرون سناً قوياً، ولكن عمركم واحد وعشرون أو اثنان وعشرون على ما أعتقد.
- ستة وعشرون.

كتبت عمره وعدد أسنانه على ورقة وسألت الآخرين عن أعمارهم، وعن عدد أسنانهم، وسجلتهم على ورقة، ثم جلست في مكاني. ترك عباس الجريدة وشرع يقرأ كتاباً. بدأت الحساب.

في سن الأربعين عنده ثلاثون سناً، وفي سن الثلاثين يكون لدى الإنسان ثمانية وعشرون سناً، وبوصولنا إلى جزيرة باركان[١٤]، عرفت عدد أسنان المرأة، بناءً على حساباتي، يجب أن يكون لديها ستة وعشرون سناً.

قلت لعباس توتوشور الشارد في كتابه:

- عدد أسنانها ستة وعشرون.
- طيب.
- ألديَّ الحق في أن أحزر مرة أخرى ؟
- نعم لديك الحق.
- عاد عباس إلى كتابه، وأنا إلى حساباتي.
- يا سيد عباس وإذا نزلت المرأة قبل يالوى؟
- ماذا نفعل؟ يسقط الرهان.
- هل هذا معقول يا أخي؟ ساعتان وأنا أتعب مخي.
- إذاً احسب بسرعة.

---

[١٤] باركان: جزيرة قريبة من استنبول.

ضربت أخماساً بأسداس، فتوضح لي أن الإنسان في ذلك السن لديه سبعة وعشرون سناً.

عباس:

- بقي عندكم حق واحد.

انطلقت السفينة من الجزيرة الكبيرة، والسيدة ما زالت في السفينة، لدينا الوقت الكافي.

خطرت لي فكرة جهنمية، سأجعل السيدة تفتح فمها، لأعد أسنانها، دون أن أقول افتحي فمك.

السيدة قبالتي تماماً. بدأت أتثاءب. تثاءبت مرة ،مرتين ،ثلاث مرات، في الرابعة، فتحت السيدة فمها، مددت رأسي فوراً، واحد اثنان ثلاثة، ثم أغلقت السيدة فمها. تثاءبتُ مرة أخرى، و بدأ كل من يجلس أمامي يتثاءب، الكل يتثاءب، كلما فتحت السيدة فمها مددت رأسي لأعد أسنانها.

الفك السفلي عده سهل، المشكلة في العلوي، بدأت أتمطط وأتثاءب.

تفتح السيدة فمها، وتتثاءب، أرى لسانها الصغير، والكل في السفينة يتثاءبون وإذا وصل تيار التثاؤب إلى غرفة الكابتن، سنبقى في بحر مرمرة طوال اليوم.

السيدة ما زالت تتثاءب، هناك سنّان غير موجودين، وسن مُلبس في الفك السفلي وسنّان اختفيا من الفك العلوي. كلما فتحت فمي أكثر، فتحت السيدة فمها أكثر.

الله يقهرهم، لو كان معي كاميرا لصورت أسنانها، وعددتهم بدقة من الصورة، إني أرى حلقها، لكني لم أستطع عد أسنانها .

في البداية كانت تضع منديلاً على فمها، ولكثرة التثاؤب لم تعد تستخدمه.

قالت العجوز الجالسة إلى يمين السيدة:

- آخ..أحس وكأن ثقلاً على ظهري.

وقال الرجل الجالس إلى جانبها :

- وأنا كذلك، مع أنني نمت جيداً هذه الليلة.

- الظاهر أن لطافة الجو أفادتنا . الأولاد ناموا أمام النافذة لكثرة التثاؤب.

- آه.. كأن حنكيَّ سينشقان من كثرة التثاؤب.

- ما هذا النعاس؟

- أنا نعسان جداً.

تثاءبنا حتى وصلنا يالوى. وبعد الحساب تبين لي أن لديها خمسة وعشرين سناً . نظرت إلى السيد عباس توتوشور، فوجدته نائماً وكتابه في يده. أيقظته:

- انهض وصلنا إلى يالوى. خمسة وعشرون سنّاً في فم السيدة.

- لا .. غلط يا روحي.

- تفضل خمسين ليرة، قل أنت كم عددها؟

وكي لا أترك لعباس فرصة لعد أسنانها، طلبت الجواب فوراً، ولكنه قال بكل برودة:

- ثمان وعشرون سنّاً.
- لماذا قولك صحيح وقولي غلط؟
- إذا لم تصدقني اسألها.
- اسألها أنت.

اقترب عباس من السيدة وسألها:

- عفواً سيدتي، كم عدد أسنانك؟

أغلقت السيدة فمها بصعوبة، ابتسمت وقالت:

- ما هذا يا سيد عباس. تعرف عدد أسناني أكثر مني، منذ خمسة عشر عاماً وأنت طبيب أسناني، بعد قلع سني اليوم بقي في فمي ثمان وعشرون سناً.
- شكراً يا سيدة.

نزلنا من السفينة، رأيت عباس ذاهباً. ركضت خلفه، سحبته من يده، وقلت:

- كم عدد أسنانكم يا سيد عباس؟
- أسناني مثل اللؤلؤ، كلها تمام.

فقلت يا الله، ولكمته على فمه

- والآن لا أظن أن عدد أسنانكم تمام.

وقع في يده سن أو أكثر.

دفعتُ للمحكمة ألف ليرة ضريبة، وتخلصت من ورطة الأسنان.

لن أتدخل مرة أخرى في أسنان أحد، ولو كان عنده اثنان وثلاثون سناً أو ثلاثمائة وعشرون سناً..

مَلِك السماد

عندما بدأت أدرك ما حولي، كنت أسمع أن أحد أعمامي في أمريكا، وأحياناً يقول لنا من يأتي من أمريكا أن عمي مليونير. كان أبي وأعمامي الباقون غاضبين منه، لأنه ذهب إلى أمريكا منذ كان عمره ثمانية عشر عاماً، وحتى الآن لم يرسل لنا لا رسالة و لا سلام.

في الحقيقة نحن وكل أقربائنا فقراء، لكن متمسكون ببعضنا البعض، ولا تفريق بيننا، لا غاية لأحدٍ بأن يخوزق الثاني، نتقاسم كل شيء، وإذا انتهى علف حيوانات عمي الكبير في الشتاء، كان الباقون يعطونه من عنابرهم، ولو نفد قمح أحدهم، أو لم يدفع دينه إلى المصرف، نسارع جميعاً لمساعدته، لم يكن هذا ديناً، لكن كما يقال: الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك.

قريتنا فيها أربعة وأربعون بيتاً، الكل أقرباء، ولا نعرف متى بدأت هذه القرابة، لذلك كنا غاضبين من عمي المقيم في أمريكا، كنا ننقلي بدهوننا ولا ننتظر منه مساعدة أو نقوداً، لكن لا مبالاته وعدم إرساله حتى سلاماً ناشفاً يزعجنا .

كبير قريتنا عمي مصطفى كان يقول: ذاك الرجل ليس من سلالتنا، ليس لدي أخ اسمه حمدي. وعندما أصبحت في الثانية والثلاثين جاء عمي حمدي من أمريكا، إلا أن عمي مصطفى لم يكلمه، وقد خاصم كل من تكلم معه من أخوته.

شعبان، ابن عمي الصغير كان يذهب كل شتاء إلى استنبول ويعمل هناك بواباً، وزوج خالتي الصغيرة كان يتاجر في المساء على ظهر حمار، وقد التقيا عمي حمدي عند عودتهم إلى القرية، وبشرهما الأهالي:

هيي ي.. لقد جاء عمكم من أمريكا، عندما كان عمي في الكراج، سأل عن أحد من أهل كيراسون[15]، و قد أشير إلى ابن عمي وزوج خالتي، إلا أنه لم يعرفهما، وسألهم عمن مات، ومن بقي من أهل القرية. وحيث أنه لا يوجد سيارة تصل إلى قريتنا، فقد جاءوا إلى قره هيسار[16] من هناك حتى القرية ركوباً على البغل، وتحلّق أهل القرية حول البغل عندما وصلوا.

كان عمي أكبر من أبي بعام ونصف، وقد أمضيا طفولتهما سوية. فلم يخاصمه أبي، فنزل ضيفاً عندنا.

في كل ليلة يسأله أبي:

- حمدي لقد قالوا إنك أصبحت مليونيراً، هل هذا صحيح؟

---

[15] كيراسون: محافظة في شمال تركيا تطل على البحر الأسود.

[16] قره هسار: محافظة في شمال تركيا.

- نعم صحيح.
- وكيف أصبحت كذلك؟

بدأ عمي يشرح:

في البداية عانيتُ كثيراً، ولا تسأل عن عذابي، لم يكن لدي عمل.. تعبت.

بلاد لسانها أجنبي، ودينها غريب.. وفي أحد الأيام عندما كنت جالساً في الحديقة، صادفتُ أرمنياً قد هاجر أيضاً من هنا، فبدأت أشكو له همومي وفقري وعطالتي، فضحك الأرمني وقال:

- كم أنت غبي!.. وهل يجوع الإنسان هنا؟
- طيب ماذا أفعل؟
- ماذا تفعل؟ هنا أمريكا لا يوجد أمريكا ثانية في العالم هنا الخـ... يساوي نقوداً.
- هل هذا صحيح؟
- طبعا صحيح، يكفي أن تعرف بيعه، ولفه جيداً، إنهم يتضاربون من أجله.

التجربة لا تحتاج إلى نقود، لقد استعرت من ابن البلد شادراً، ونصبته في الحديقة، ثم انتظرت عند باب الخيمة. جاء بضعة أشخاص وسألوني:

- ماذا يوجد في الداخل؟

فقلت لهم الحقيقة:

- يوجد خـ..

ويبدو أن الرجل لم يصدقني:

- بكم الدخول؟

- بعشر سنتات.

أعطاني عشر سنتات، ودخل ثم خرج بسرعة. وقد سأله الناس عندما خرج:

- ماذا يوجد في الداخل؟

- خـ.. وابتعد بسرعة.

وكان كل من في الخارج يتساءل:

- هل هذا صحيح؟

- طبعاً، لا داعي للكذب.

ومن يدفع عشر سنتات يدخل. وعند خروجهم يسألهم من في الخارج، فيجيبون غاضبين وعندما يقولون لهم: يوجد خـ.. كانوا يتساءلون أكثر.

امتلأ باب الخيمة، ولم أعد ألحق قبض النقود في تلك الليلة، بقيت حتى منتصف الليل أقبض نقوداً، ولو لم أطو الشادر، لاستمروا في المجيء حتى الصباح، في ذلك اليوم ربحت مئتي دولار.

ثم كبّرت الخيمة واستأجرت مساعدين يعملون على أربعة أبواب للشادر، و قبل أن تمضي سنتان أصبحت مليونيراً.

فقال أبي:

- ألم يقل لك أحد شيئاً؟

- الوضع هناك مختلف عن هنا، الربح مسموح، ويكفي أن لا تغشّ أحداً، أو تخوزق أحداً، فمثلاً، أن تقول للناس سأريكم عصفوراً وتريهم فأرة، هذا ممنوع ويعاقبونك لأجله.

ازداد أبي تعجباً:

- لا أحد يقول لك شيئاً؟

- بعد أن تدفع ضريبتك من سيقول، وماذا سيقول؟ البطاقات موجودة، ومعلوم كم بطاقة تبيع في اليوم، في كل سنة أدفع ثمانية آلاف دولار، وماذا يعني ثمانية آلاف دولار؟ وإذا لم أعمل أنا بهذا العمل ماذا سيحصل؟ حتى لو أنني وجدت إمكانية لعمل جديد.

قطع أبي حديث عمي قائلاً:

- هل تتعب كثيراً؟

- لا يا روحي، في البداية تعبت كثيراً، ولكن فيما بعد لم أتعب أبداً، لأنه يوجد في أمريكا مكاتب للمليونيرين، فكنت أراقب أعمالي من المكتب المخصص لي، وفتحت فروعاً كثيرة، ويعمل مئات الرجال تحت إمرتي.

فقال أبي:

- طيب، ألم يعمل أحد بهذا العمل بعد أن رأى عملك؟
- لا،هناك حقوق للتجارة، وعندما يجد أحدهم فرصة عمل، لا أحد يسرق هذه المهنة، أنا أخذت رخصة هذا العمل.

أبي لم يعجبه كلام عمي فقال:

- عمل من الخـ.. ألم تجد عملاً آخر؟
- هذه بلد صناعية، ولم أجد فرصة عمل لم تؤخذ رخصته إلا هذا العمل.
- والآن، هل تعمل في نفس المجال؟
- لا ، الآن أصبحت ملكاً .
- ماذا؟ ملكاً؟ ملك أي بلد ؟
- ملك أمريكا .

لم أتحمل كذب عمي فقلت له:

- يا عمي، أمريكا ليست مملكة، إنها دولة نظامها جمهوري.
- جمهورية، ولكن جمهورية أمريكا يرأسها الملوك، وأنا ملك السماد وقد تزوجت من ابنة ملك الذرة، وابني ملك السنانير، وعندي في أمريكا خمسة معامل للسماد الصناعي.

جاء عمي ملك السماد، لبيع السماد في بلدنا، لكنه لم يتمكن من البيع مدة عشرة أيام من إقامته، ثم همّ بالرحيل، وأراد أن يصالح عمي الكبير، إلا أن عمي الكبير قال له:

- انقلع يا خـ.. وصدّه.

بعد عودته إلى أمريكا، ذهب شباب من قريتنا إلى أمريكا ليصبحوا مليونيريين، وفي الرسائل التي وردت منهم قالوا:

إن العمل الذي كانوا سيقومون به، رخصته مع عمي حمدي، لذلك لم نجد فرصة عمل.

لبطة.. لكمة

أكبر وأغنى الشركات الأمريكية لصناعة الأدوات المنزلية والمحركات، و هي شركة «انترناشيونال هيستار جورب»، أرسلت إلى تركيا من كل أنواع المحركات والأدوات المنزلية، البراد، المكنسة الكهربائية، الجرار، طناجر الضغط، الشاحنات، باختصار كل لوازم القرن العشرين، ترسلها إلى تركيا بكميات كبيرة.

أخيراً عُهد بفتح البئر وتمديد المياه في الأناضول الوسطى لشركة «انترناشيونال هيستار جورب»، وممثل الشركة في تركيا يرسل شكاوى كثيرة إلى الشركة في ميلواؤك بأن كل البضاعة التي تأتي إلى تركيا تتعطل بحيث لا يمكن إصلاحها.

للشركة ممثلون في القارات الخمس، وفي كل قطر تقريباً لها مكاتب، يعني مائة وخمسة مكاتب للعرض والبيع. ولا تأتي الشكاوى من أي فرع بقدر ما تأتي من تركيا، تنتبه الشركة إلى البضاعة التي ترسلها إلى تركية أكثر، وتضع قطعاً احتياطية أكثر، ومع هذا لا تستطيع الصمود أمام الشكاوى.

ظنــوا في البدايــة أنهــا خطــة للـشركات المنافسة مثـل «جوجها لموس جو» «تروحك جومبانوس»، لذلك بعثت جواسيس إلى هذه الشركات للتأكد،والنتيجة أن هذه الشركات تعاني نفس المشكلة في تركيا.

قبـل أن تبـدأ الـشركة بحفـر البئـر وتمديـد الميـاه، قـررت أن تبحـث في هـذه المشكلة، كلـف المدير العـام لـشركة انترناشـيونال هيـستار جـورب رئـيس الوفـد الـذاهب إلى تركيـا، بالبحـث عـن أساس هذه الشكاوي، وأرسـل معـه ثلاثـة معامـل متنقلـة لتـصليح المحركات والأدوات المنزلية.

وصـل الوفـد المؤلـف مـن عـشرين شخـصاً، مـع لـوازم الحفـر وتمديد المياه. نـصبوا الخـيم في الـسهول الواسـعة، فكانـت أقـرب قرية عليهم علـى بعـد ثمانيـة عشر كيلـو متراً. وفي اليوم التـالي ذهـب الـسيد (هـاري سـكوت) رئـيس الوفـد، مـع مهندسـين يثـق بهمـا ومترجـم، وبـدأ يـدور علـى القـرى بـسيارته، فقـال المترجـم لمختار القرية الأولى:

- مـن لديـه بـضاعة لـشركة انترناشـيونال هيـستار جـورب، معطلـة ليـأتِ بهـا فـوراً وهـؤلاء الـسادة سيـصلحونها دون أجرة.

لم يفهم القرويون في البداية من المترجم، فكرر كلامه ثانية:

- جرار، حصادة، شاحنة، راديو، ماكينـة خياطـة، ألا يوجد منها في هذه القرية؟

- نعم يوجد..
- إذا كانت من ماركة شركتنا ومعطلة سنصلحها دون أجرة.

أحد القرويين:

- لينظروا إلى مسجلتي.

أرسل ابنه ليحضرها، فجاء بالمسجلة المعطلة، ووضعها على الطاولة، نظر المهندسان إلى المسجلة طويلاً، ولم يجدا الماركة. مكانها محفور بالسكين،عليها صور مختلفة، ومكتوب على القماش الموضوع فوقها (ما شاء الله)، وإلى جانبها خرزة زرقاء، ودُقّ على علبتها مسامير كبيرة، ثلاثة منها محنية من الخارج، وخيوط عديدة تتدلى منها.

نظر المهندسان في وجه بعضهما البعض مستغربين، وبعد تقليب المسجلة سألوا المترجم:

- ما هذه؟

سأل المترجم القروي:

- يسألونك ما هذه؟

قال القروي:

- هل هما أعميان؟. هذه مسجلة.

فتح رئيس البعثة عيناه بدهشة وقال:

- مسجلة؟ هل هذه مسجلة؟ أظن أنها صناعة بلدكم، هل عملت؟ هل سمعتم صوتها؟

- طبعاً، استمعنا إليها عدة أسابيع..

سأل السيد هاري سكوت بواسطة المترجم:

- طيب.. ما هذا المسمار الكبير؟

أجاب القروي:

- مفتاح المحطات قد تعطل، فوضعت لها المسمار الذي أحضرته من أساس البيت. فبواسطته أبحث عن المحطات.

- طيب. ما هذه الأشرطة؟

إنه يسأل عن أشرطة غليظة متدلية من المسجلة.

- شريطها رفيع جداً، انقطع، وضعت لها شريط تلفون.

نظر المهندسان إلى المسجلة عدة مرات، ولم يستطع أحدهم حتى أن يشبهها بالمسجلة ،ولم يقتنعوا أنها مسجلة، فكيف لهم أن يصلحنها؟ شعروا بالخجل أمام القرويينً..

قال أحد الحضور:

- مسجلتي أيضاً بهذا الشكل، ولكني أستمع إليها منذ أكثر من عام بطريقتي الخاصة.

ربط القروي الأشرطة المتدلية من المسجلة، وبدأ يدوِّر بالمسمار الذي يستخدمه مفتاحاً للمحطات. فاشتعلت مصابيح المسجلة، لكن الصوت ضعيف جداً.

بعد عدة ضربات سمعوا أغنية تخرج من المسجلة. دُهش الأمريكيون لهذا المشهد. توقف الصوت بعد قليل. ضرب

القروي المسجلة وهزها بعنف، فعاد الصوت، ومرة أخرى غاب الصوت، وفي هذه المرة رفع القروي يده، وضربها بقوة أكثر، فجاء الصوت عالياً، وبدأ الزجاج في المقهى يهتز.

فقال القروي:

- المسجلة لا تفهم إلا بهذه الطريقة، وإذا توقفت مرة أخرى، أضربها على الأرض فتعمل.

خرج الأمريكيون من المقهى، فاغري الأفواه، ركبوا سياراتهم وذهبوا إلى الناحية لرؤية السيارات المعطلة من ماركة شركتهم، فوجدوا باصين من إنتاجهم، وشاحنة وجراراً وميكرو باصاً.

عاينوا ميكرو باص صاحب الفندق.

الميكرو باص واقف في زاوية شارع أعوج، الزجاج مكسور، في الشباك بوري مدفأة يخرج منه الدخان، على الشبابيك ستائر، وقد ألصقت الجرائد مكان الزجاج المكسور، والباب مخلوع وقد وضع مكانه باب خشبي، أحد الدواليب غير موجود، والآخر على الرافعة، المصابيح مكسورة، السيارة متكومة مثل العجين، و مدهونة بألوان مختلفة، وإذا لم تدقق جيداً لا يمكن أن تعرف لونها الأساسي، رقمها مكتوب بقلم حبر.

سأل السيد هاري بواسطة المترجم:

- ما هذه؟

أجابه الرجل:

- هل هم عميان؟ ألم يروا الميكرو باص في حياتهم؟

عند سماعهم أن هذا ميكرو باص، بقي فمهم فاغراً من تعجبهم، تجمع أهالي الناحية حولهم. بدأ صاحب الفندق يشرح لهم:

- قبل ستة أشهر اشتريتها، ولكن بشرفي بعد أربعة أشهر تعطلت، وعندما تعطلت أجّرتها. والآن يستخدمونها غرفة.

أحد الموجودين هناك قال:

- باصي، يعاني نفس المشكلة، لكني وجدت له الحل. كل يوم أذهب به أكثر من مائة كيلو متر، وعندما يتعطل في الطريق أصلحه فوراً .فأخذهم إلى حيث يوجد باصه .

وضع البنزين للباص، إلا أن خزانه مثقوب، فوضع العلكة على الثقب، جلس ابن صاحب الفندق على كرسي السائق، ثم ركض صاحب السيارة فقال: يا قوة الله ورفس السيارة،

سمعوا صوت: هررر....، ثم بدأت السيارة تعمل..

ذهب الوفد الأمريكي إلى المكان الذي يوجد فيه جرار، فدهشوا من المنظر، يوجد فوق الجرار الثوم و البصل و شحاطة قديمة و حذوة حصان، وقد رُبط الجرار بالحبال.

لم يستوعب الأمريكيون أن هذا الذي أمامهم جرار، لذلك لم يستطيعوا معرفة عطله، ثم شغّله صاحبه بعدة ضربات بالمطرقة.

قال السيد هاري سكوت:

- تستطيعون تشغيل الجرار، ما هي شكواكم؟

صاحب الجرار:

- المطرقة تجعل كل عاطل يعمل، أريده أن يفهم الكلام فيمشي عندما أقول له حاااا ويقف عندما أقول له هيش.

ذهبوا إلى مكان الباص، وقد امتلأ من الداخل بالآيات، واللوحات التركية وعلى مرآة السائق يوجد دعاء النملة، وبدلا عن كراسي الباص يوجد كراسي من القش، مثل كراسي المقهى، وعلى واجهة الباص من الداخل كتابات بالأحرف الكبيرة «دربك مفتوح بإذن الله» تذهب وتعود بالسلامة»، «راجع بإذن الله»، «يا ساتر»، «عين الحسود فيها عود». لم يصدق الأمريكان أن هذا الباص من أمريكا.

لم ينفع الهز والضرب بالمطرقة مع هذا الباص، صرخ أحد الموجودين:

- توقفوا..

أدار ظهره للموجودين، وبالَ داخل غطاء المحرك، ثم قال:

- سيشتغل الآن، لأن حرارته ارتفعت. و تحرك الباص مباشرة.

عاد السيد هاري سكوت إلى خيمته مرهقاً، لكنه أمسك القلم على الفور وكتب تقريراً إلى المدير العام لشركة انترناشيونال هيستار جورب وتضمن التقرير ما يلي:

«إن الأتـراك متطـورون أكثـر منـا ، ومـن كـل شـركات الـدول المتقدمــة، و بطريقــة ســرية لا نعرفهــا يــصنعون في بلــدهم المـسجلات والجـرارات والـسيارات والـشاحنات، ويخفـون هـذه الابتكارات عن العالم كله.

منذ القديم والأتراك مشهورون بقوتهم وعنفهم، والآن نجحوا في تـشغيل الراديـو باللكمـة والجـرار بالمطرقـة، والميكـرو بـاص بالبطة، والباص بالبول على المحرك. إن هذا السر أهم من سـر القنبلـة النوويــة، فمــن مــصلحة شــركتنا أن ترســل إلى هنــا جواسيس لديهم خبرة كبيرة».

محمد من بلد آمات

عام 1937 أصبحت رائداً زي الفُل. جهزت حقيبة السفر، والتحقت بالدورة. ودّعت مياه المدينة، والإقامة في بي أوغلو[١٧]، انتعلت حذاء الجلد الطويل ولبست الزي العسكري الخاص.

وفي الشهر الثاني من التحاقي، جاءنا خبر عاجل أن رئيس أركان القوات المسلحة سيزور اللواء، قال العقيد:

- عندما يأتي رئيس الأركان، سيسألنا عن المجندين، ويسأل المجندين عن أسمائنا.

هذه المسألة معروفة في الجيش بكل مكان، فبدأ الضباط يحفظون أسماء المجندين، والمجندون يحفظون أسماء الضباط بالتسلسل: ملازم، عقيد، عميد، لواء، وحفظ الأرقام الخاصة بالمجندين.

أثناء التفتيش في العام الماضي، سأل رئيس الأركان الجندي عن اسمه ورقمه، ثم اسم قائد سريته، ثم قائد الكتيبة، فقائد

[١٧] بي أوغلو: حي في استنبول.

اللواء، ثم قائد الفرقة، وأجاب الجندي عن الأسئلة، ما عدا اسم قائد الفرقة، فغضب رئيس الأركان منه وقال:

- الجندي الذي لا يعرف اسم ضباطه، لا يعرف شيئاً... ثم ترك التفتيش وذهب.

وحسب قول مدير الإحصاء، إن رئيس الأركان عندما يرى ضابطاً ويسأله عن اسمه لا ينساه أبداً ويقول:

- عندما كنت ملازماً، كان رئيس الأركان، قائداً للواء، وكان يعرف كل أسماء المجندين فيه.

كنت أحاول أن أحفظ أسماء المجندين، فكتبت أسماءهم على دفتر صغير، ومقابل أسمائهم، كتبت العلامة المميزة لكل منهم، وبدأت أحفظ: أحمد الطويل «أسمر، أنفه صغير»، علي مرت أوغلو «أشقر، عيناه زرقاوان». في البيت، في الطريق، في المقهى، في كل مكان. الدفتر في يدي وأحفظ والجميع يعيشون هذه الحالة.

المجندون حفظوا أسماء ضباطهم دون أي غلط، سوى جندي اسمه محمد من بلد آمات، لم أتمكن من تحفيظه الأسماء. وليكن في معلوماتكم أن محمد لم يبرح من قريته إلى أن استلم دفتر الخدمة في الجيش، ثم جاء إلى هنا، وحتى قريته لا يعرفها جيداً، لأنه كان راعياً حيث يقضي معظم وقته في الجبل. كان طيب القلب، عيناه تشعان دفئاً. ألا يقال فلان عملاق؟ إنه عملاق، طوله متر وتسعون سنتمتراً، عندما يضع الرشاش على

KMH

كتفه تظنون أنه يحمل لعبة. وعدد الكلمات التي يعرفها لا تتجاوز الألف. يظن أن أتاتورك نبي، عنده قابلية للتعلم بشكل لا يوصف، لا يتعلم بسهولة، ولكنه لا ينسى بسهولة. خلال سبع دقائق يفك الرشاش قطعة قطعة ويركبّه وهو معصب العينين. كنت أحب محمد كثيراً. لقد كان يلعب بالرشاش مثلما يلعب الطفل بلعبته، و يضيع الرشاش بين يديه.

جاء إلى لوائنا مصارع مشهور، وتصارع مع محمد الآماتي، إن محمد لا يعرف المصارعة، فبقي واقفاً مثل العمود، ضاحك الوجه، دخل المصارع من هنا وحاول من هناك، لكن خلال ساعة كاملة لم يقدر أن يطرح محمدا أرضاً، وتعادلا في النهاية.

عندما أبدأ بالحديث عن محمد الآماتي، لا أنتهي، ولكنني لم أستطع أن أحفظه أسماء الضباط، فهو يخلط بين اسم الرقيب واسم القائد.

- يا بني محمد. انتبه.. مرة ثانية، اسم الرقيب؟

تتغير ملامحه، يفكر ثم يقول:

- محمد علي.
- لا. محمد علي مساعد.
- أخطأتُ يا سيدي.
- لا تخطئ يا محمد، من البداية.

حاولت معه على مدى شهرين، ليلاً ونهاراً، لكن لم أوفق.

كل يوم اسمٌ واحد، وفي اليوم التالي ينساه. وعندما أغضب منه، يثبت النظر أمامه ويقول:

- أخطئُ يا سيدي.

قبل التفتيش بيوم واحد، حاولت معه عدة ساعات، ولم يتعلم شيئاً. فقلت له:

- انتبه يا محمد إذا سألك رئيس الأركان أثناء التفتيش سنحرج كلنا، الضباط وزملاؤك، وتعب شهرين سيذهب سدى، افعل ما تشاء.

كنت غاضباً حقاً، وفي اليوم التالي كان اللواء جاهزاً للتفتيش منذ الصباح الباكر، لم أستطع النظر إلى وجه محمد الآماتي. نزل رئيس الأركان من سيارته، قدمنا له اللواء، فحيا الجنود ثم مشى، ووقف أمام محمد، ووقع ما كنت أخشاه. حذائي يعصر قدمي ونطاقي يعصر بطني، والعرق يزخّني من رأسي إلى قدمي، نظرت إلى محمد، وكان ينظر إلى رئيس الأركان دون خوف، فسأله القائد:

- اسمك و رقمك؟

أجاب محمد دون خطأ:

- السرية الخامسة، الكتيبة الرابعة، اللواء الثلاثون، الفرقة الثانية، المجند اسمه محمد بن حسين، من بلد آمات، تولد 1933رقمي 625.

أدعو لربي أن يسأل أحدا غير محمد .

- اسم رقيبك؟
- الرقيب علي يوسف.. قالها دون تردد .
- اسم المساعد؟
- عثمان خضر.
- الملازم؟
- الملازم حسن كولتكين.
- العقيد؟
- محمد يورت سوار.

أصبح محمد مثل شعلة نار، وقبل أن ينهي القائد سؤاله، كان يعطيه الجواب.

- قائد الكتيبة؟
- عثمان قوطمان.
- قائد اللواء ؟
- كامل يلدز.

أجاب محمد عن كل الأسئلة ولم يخطئ كما كان معي،ونال إعجاب القائد .

قال القائد :

شكراً لكم. صافحنا جميعاً، وأمر قائد اللواء بمتابعة التفتيش.

ثم ركب سيارته وذهب. أمسكتُ محمد بعد التفتيش وقلت له:

- ما هذا يا محمد؟

احمرَّ وجهه خجلاً، وأطرق في الأرض، فتابعت:

- قل يا محمد، كيف حفظتهم؟

محمد لا يجيب.

- قل يا بني، شهران ولم أستطع أن أحفظك الأسماء، كيف حفظتهم في ليلة؟ ارفع رأسك!

حدّق بعينيه البريئتين.

- قل كيف حفظتهم؟ ارفع رأسك.
- لم أحفظهم يا سيدي.
- إذاً، كيف عرفتهم؟
- لم أعرفهم يا سيدي.
- لم تعرفهم؟ كيف أجبت عنهم إذاً؟
- قلت أسماء من عقلي يا سيدي. حفظت اسم قائد الفرقة، ورئيس الأركان فقط، والباقي من عندي.
- لقد قلت الأسماء بشكل صحيح يا محمد، لكنك أمامي كنت تفكر طويلاً.

- يا سيدي، بما أني أخطئ بالأسماء، أتمهل أمامك فأنت رائد هنا، لكنني أمام رئيس الأركان لا أستطيع التلكؤ، فأذكر أسماء من عندي، لأنه هو أيضاً لا يعرف الأسماء.

لو كنت امرأة

بدأ العمل في معمل (سلامة) للقماش بوأباً. راتبه ثمانون ليرة، طبعاً هذا المبلغ لا يكفي ربع رجل للمعيشة، ولكنه يعتمد على شطارته، يوماً ما سيلاحظ المعلم شطارته، ويزيد له الراتب. إنه ليس من الرجال الذين يناسبهم عمل البواب، ولكن الدنيا أصبحت بالمقلوب هذه الأيام، على الباب من لا تليق به مهنة بواب.

يعمل ليلاً ونهاراً ليدفع له المعلم راتبه العظيم، آه لو استطاع أن يعمل حارساً ليلياً، فالحارس الليلي يقبض مائتي ليرة، وعمل الحارس أسهل من عمله.

عندما يطلب الإنسان أمراً بالقوة، لابد أن يحصل عليه. في أحد الأيام ناداه المعلم:

- إني مسرور من عملك.
- شكراً، الله يطوّل عمرك.
- هل أنت متزوج؟

أجابه بخجل وكأنه مذنب:

- نعم.. ثم اعترف له، محنى الرأس: عندي طفلان يا سيدي.

تأثر المعلم لحالته، ثم غضب:

- ياه.. طيب كيف تعيشون؟!
- بصعوبة يا سيدي.
- سأقدم لك معروفاً، هل باستطاعتك أن تقوم بعمل البواب والحراسة الليلية معاً؟
- طبعاً يا سيدي.
- إنك تعمل في النهار ست ساعات على الباب، أضف لها ثماني ساعات حراسة ليلية يساوي أربع عشرة ساعة، يبقى لديك عشر ساعات. هل هذا جيد؟
- شكراً يا سيدي.
- سأدفع لك ثلاثين ليرة شهرياً، لقاء عمل الحراسة.
- تعيش يا سيدي.

استلم عمل الحراسة، كان الحارس القديم يقبض مأتي ليرة، ولأن نومه ثقيل طرد من عمله. في النهار يقف على الباب، وفي الليل يحرس المعمل، أصبح دخله مائة وعشر ليرات شهرياً.

كان دقيقاً في عمله، نبيهاً، والمعلم ليس حماراً، سيأتي يوم ويرى فيه عمله المخلص، ثم يريحه من هموم المعيشة، مثلاً لو أصبح كاتباً للمعمل، لكان خيراً له، الكاتب يقبض ثلاث مائة ليرة.

عندما يطلب الإنسان شيئاً بالقوة، لا بد أن يحصل عليه.

طلبه المعلم في أحد الأيام:

- إنني مسرور منك ومن عملك، أريد أن أكافئك مرة ثانية، إنك تنتظر في الحراسة دون عمل، هل تعمل كاتباً؟ أضيف إلى راتبك ستين ليرة.

فكَّر قليلاً. سيقبض مائة وسبعين ليرة،

فقال للمعلم:

- الله يعطيكم طول العمر، يا بيك.

لقد أُخرِجَ الكاتب من عمله لأنه يدخن، ويشرب الشاي والقهوة كثيراً، ولم يبق لديه وقت للعمل. بدأ بعمل الكاتب في المعمل، ففي النهار بواب، وفي الليل يجلس أمام الآلة الكاتبة، وفي نفس الوقت يقوم بالحراسة.

إنه يعمل بجد، والمعلم ليس حيواناً، سيلاحظ همته العالية ويكافئه. كان أمين الصندوق في المعمل يقبض أربعمائة ليرة شهرياً، آه لو استطاع أن يصبح أمين الصندوق.

عندما يطلب الإنسان شيئاً بالقوة، لا بد أن يحصل عليه.

طلبه المعلم في أحد الأيام:

- أعرف أن مئة وسبعين ليرة قليلة جداً هذه الأيام، أريد أن أرفع راتبك.

- شكراً يا سيدي.

- أظن أن لديك وقت فراغ؟ بدلاً من الجلوس في البيت، سأكلفك بحسابات المعمل.
- سأفعل يا سيدي.
- حسناً، سأضيف إلى راتبك خمساً وأربعين ليرة.

أمين الصندوق السابق كان يشرد كثيراً، ويمزح كثيراً لذلك طرد من عمله.

سيدخل إلى جيبه الآن مئتان وخمس عشرة ليرة، ست ساعات يعمل في النهار، وثماني ساعات في الليل، يحرس المعمل، ويكتب الرسائل والفواتير، وعندما يذهب للبيت يقوم بتدقيق حسابات المعمل.

إنه يعمل كثيراً. شديد الانتباه في عمله، يحاول أن ينتج الكثير. والآن وضع نصب عينيه مكان أمين العنبر، إنه يقبض أربعمائة وخمسين ليرة.

عندما يطلب الإنسان شيئاً بالقوة، لا بد أن يحصل عليه.

ناداه المعلم:

- أريد أن أكافئك مرة أخرى، ما قولك بوظيفة أمين العنبر؟
- هذا لطف منك يا سيدي.
- سأزيد راتبك خمساً وثلاثين ليرة، هيا. اذهب واستلم العنبر.

طُردَ أمين العنبر لأن عقله لم يكن معه في أغلب الأحيان، فأرسل البضاعة إلى بيته بدلاً من إرسالها إلى العنبر.

يعمل ليلاً نهاراً دون كلل أو ملل، طبعا المعلم ليس بغلاً، سيأتي يوم يرى فيه مقدار كفاءته. هذا ما حصل فعلا..

ناداه المعلم في أحد الأيام، وقال:

- أشكرك، إنني مسرور منك كثيراً. من يعمل ينتج. عمل البواب لا يليق بك، سأعينك مديراً إضافة لأعمالك السابقة.

- مديرا؟! استغرب كثيراً، منذ زمن وعينه على هذا المنصب.

حقاً: عندما يطلب الإنسان شيئاً بالقوة، لا بد أن يحصل عليه.

المعلم: سأضيف إلى راتبك تسعين ليرة.

ولأنه ترك عمل البواب، انقطع من راتبه ثمانون ليرة، لكنه في المقابل أصبح مديراً، فزاد راتبه تسعين ليرة، سيدخل الآن إلى جيبه مئتان وستون ليرة.

طُرد المدير السابق لأنه حاول أن يعتدي على البنت التي تعمل على الآلة الكاتبة عند المعلم. يوجد في المعمل أربعون عاملاً ومعلمان، وعشرون آلة. لا يستطيع العمل كعامل، ولا معلم، ولا يمكنه أن يحل محل الآلات.

لم يتبق في قسم الإدارة غيره والبنت التي تعمل على الآلة الكاتبة عند المعلم، الباقون طردوا من عملهم.

في أوقات الفراغ، كان يدردش مع ضاربة الآلة الكاتبة ويمدح معلمه:

الله يرضى عنه إنه رجل طيب، دخلت المعمل بواباً بثمانين ليرة، فأصبحت حارساً فأصبح راتبي مئة وعشر ليرات، ثم جعلني كاتباً براتب مئة وسبعين ليرة، ثم أميناً للعنبر فأصبح دخلي مئتين وخمس عشرة ليرة، والآن مديراً بمئتين وستين ليرة.

وتكلمت البنت أيضاً عن محاسن المعلم:

دخلت المعمل بأربعين ليرة عاملة تنظيف، ثم بدأت أغسل الملابس الخاصة بالمعلم، وأنظف بيته، فأصبح راتبي ستين ليرة، وبعدها بدأت أكتب على الآلة الكاتبة براتب ثمانين ليرة، وبعدها أحضر الطعام وأقوم بأعمال منزل المعلم فأصبح راتبي مائة ليرة، وبعدها طبعاً أصبحت... المعلم، فزاد راتبي خمس عشرة ليرة وأصبح مائة وخمس عشرة ليرة.

في أحد الأيام، قال لضاربة الآلة الكاتبة:

تعملين كثيراً وتتعبين كثيراً.

فقالت له:

وأنت؟ هل تعمل قليلاً؟ أليس راتبك قليلاً؟ ألا تريد أن يزاد؟

نظر في وجه ضاربة الآلة الكاتبة، ولم يبق أحد سواهما في الإدارة، وفكر بالأعمال التي تقوم بها الفتاة فقال:

لا.. لا أريد أن يزاد راتبي. أحمد الله أنني لم أكن بنتاً، ماذا سأفعل وقتها؟ لكان طردك المعلم وزاد راتبي عشرين ليرة.

لا، لا.. إنني مسرور.. تماماً. لو كنت امرأة لكان؟!!..

أصبحت رئيس بلدية

لم أصبح بإرادتي، هم جعلوني بالإكراه. قلت لهم:

- لن أصبح.
- بل ستصبح، هذا عمل قومي. وعندما يكون العمل قومياً، تقف المياه الجارية وتجري المياه الواقفة..

السبب في مجيئي إلى كرسي رئاسة البلدية هو الرز والفاصولياء، طبعاً يجب أن لا نأكل حق الكمبوت[18]، فله حصّةٌ أيضاً. لكن الفاصولياء هي الأساس. فلولا صحنان من الفاصولياء الحب مع اللحمة والفليفلة الحمراء وكثير من رب البندورة لكان من الصعب أن أصبح رئيس بلدية.

وأنتم، عليكم أن تأكلوا مع ربع رغيف من الخبز صحنين فاصولياء وصحن أرزّ، وتشربوا الكمبوت، ثم ناموا، بعدها انظروا كيف ستصبحون رئيس بلدية..

أنا، من تواضعي اكتفيت برئاسة البلدية، و إلا كنت غارقاً في نوم يجعلني ملكاً بدلا من رئيس بلدية.

---

[18] الكمبوت: نوع من الحلويات، عبارة عن مرقة حلوة المذاق يوضع فيها حب الزبيب.

نوم الظهيرة مختلف، يحلم فيه الإنسان ويعرف أن هذا حلم، ورؤية الحلم ببطن شبعان مثل الحياة السياسية، ترتفع وترتفع، وتعرف أنك ستسقط عندما تصحو..

خيراً إن شاء الله، سأحكي لكم عن نوم الظهيرة بكل صدق، بعد الفاصولياء والرز والكمبوت، ارتخيت وتمددت على السرير.

قُرع الباب:

- تفضل.

دخل ثلاثة أشخاص باحترام، وقال السمين فيهم:

- مبروك، أصبحتم رئيس بلدية.
- لا تسخروا مني في الحلم.
- والله أصبحتم رئيس بلدية.
- أعرف هذا حلم.
- حُلم أم علم، الآن أنتم رئيس بلدية..
- أريد أن أصبح رئيس بلدية كي أرضي كل أهالي البلد.

بعد ذهابي إلى مبنى البلدية، أول عمل قمت به هو الاطلاع على الجرائد اليومية، أحد الكتاب الساخرين، كتب تحت عنوان «كيف تعمل هذه البلدية؟» يشكو من عدم وجود مجاري مياه في الشارع الذي يسكن فيه.

قسمنا المحافظة إلى أقسام، ثم بدأنا بتمديد المجاري وفق خطة مدروسة.

وفي اليوم التالي، كَادت القيامة أن تقوم في الجرائد:

- ما هذه الرذالة..؟! هل من الممكن أن تكون البلدية هكذا؟ الشوارع مثل أوكار الأرانب، كلّها ثقوب وحُفر.

قلت للاختصاصيين:

- ماذا يجري؟ الشعب يشكو وهذا من حقه، على الفور أصلحوا الشوارع.

ومباشرة بدأ إصلاح الشوارع وتزيين الأرصفة، وتعبيد الطرقات. وفي اليوم التالي، قذفت الجرائد البلدية قذفاً غزيراً:

«أصبحت المحافظة تعيسة جداً، إن البلدية تلهث خلف المظاهر».

توقفوا عن الإصلاحات، ولتبدأ تعبئة الثقوب والحفر.

وهذه المرة، شكت الجرائد من ازدحام الشوارع، ومن مشقة الذهاب والإياب.

أول عمل قمت به بعد ذلك، هو استملاك الأبنية وهدمها، وهذا العمل سبب لنا مشاكل أكبر.

إحدى الجرائد: «قطعت البلدية ثلاث أشجار حور بحجة فتح طريق.. إنها تمحو ما لدينا من خَضارٍ..!».

جريدة أخرى: «بحجة فتح طريق، هدمت البلدية دور مياه بكر باشا التاريخية، إنها جريمة، هذا الشعب يعيش بلا شارع، ولكنه لا يقبل العيش بلا تاريخ..».

أصدرت أمراً بأن تزرع أشجار الحور في كل الشوارع وأن ترممَّ دورة مياه بكر باشا التاريخية.

وبعد ذلك شنت الجرائد أعنف هجماتها، إذا كان لا يوجد حديقة ولا أرض خضراء في المحافظة، ألا يعتبر زرع الأشجار في الشوارع الضيقة تمويهاً؟! وبشكل خاص، تصليح كومة الأحجار، هذه التي يسمونها دورة مياه تاريخية.. إنها لا تساوي عشرة قروش، بل إنها شبحٌ يقف أمام الإسكان، وليس لها أية قيمة تاريخية.

كل الحق مع الجرائد، إنها تمثل الرأي العام، لذلك أصدرت قراراً جديداً، يقضي بهدم دورة المياه وقطع الأشجار وإنجاز حدائق عامة وحدائق للأطفال وزرع الخضار، وشرعنا بتنفيذ القرار بأقصى سرعة.

ولم يمض ثلاثة أيام حتى ارتفعت أصوات الجرائد.. «الشعب لا يجد سطحاً يضع رأسه تحته، والبلدية تستملك الأبنية. أمرتُ بإنشاء أبنية جديدة بدلا من التي استملكناها، وبزرع الأشجار على جوانب الطرقات.

الجرائد تمثل الرأي العام، فلم يتركوا كلمة إلا وقالوها:

هذه الأشجار الوسخة تشوه منظر المحافظة.. إن أشجار الحور وسخة تثمر في تراب غير صالح، تراب بعلي كلسي، ربما يصلح لأوروبا الوسطى، لكن ليس لمحافظتنا التاريخية فإن لها أشجاراً خاصة بها، كالسرو والصفصاف.. وما هذه الأبنية التي لا شكل لها؟ مثل علب الكبريت!. ألا يوجد عند البلدية نظر؟!

أوقفتُ إنشاء الأبنية، وأمرت ببناء منازل تعود إلى القرن السادس عشر.كما البناء التركي المؤلف من طابق واحد ضخم، وكذلك بزرع أشجار السرو.

الجرائد الناطقة باسم الرأي العام، ادَّعتّ أن أشجار السرو هذه قلبت المحافظة إلى مقبرة. الأوروبيون يفضلون السكن في الأبنية، ونحن نبني بيتاً من طابق واحد؟ يا لهذه الحماقة!

الأبنية أقل كلفة وجهداً، وزرع الأشجار في محافظة لا يوجد فيها شارع يُمشى عليه ولا مجارٍ للمياه سعيٌ واضح نحو المظاهر.. ماذا يمكن أن يُقال عن كلام صحيح؟

حشدنا الجهود كلها نحو مجاري المياه.

الجرائد من جديد: «الطرق كلها محفَّرة، ولا نستطيع المشي فنضطر إلى التجول بالسيارات، وكأن البلدية أنهت مشكلة الغلاء، وجاء الدور على الطرق.

دعوت جميع العاملين في البلدية وقلت لهم:

من الآن فصاعداً لن نشتغل، كل واحد منكم يأتي ويجلس في البلدية فقط.

وإذا بالجرائد: «ما هذه اللامبالاة؟ ما هذه البلدية الكسولة؟» عقدت مؤتمراً صحفياً ودعوت كل الصحفيين وقلت:

يا سادتي: قلتم مجاري مياه، وعندما بدأت العمل، قلتم الحفر في الشوارع، أغلقنا الشوارع، ثم قلتم ساحة، وفي افتتاح الساحة قلتم البلدية تهدم الأماكن الأثرية، وعندما أردنا ترميم الأماكن الأثرية قلتم: السكن ألزم..!

وبعد أن أفرغت كل ما ﻓﻲ داخلي، قلت:

- قولوا ..جميعنا الآن هنا، والبلدية ستفعل ما تريدون، وتتجنب ما لا تريدون..

فتقدم أحد الصحفيين وقال:

- أنت بصفتك رئيس بلدية، دعك مما نقوله ونكتبه، نحن مجبرون أن نكون مخالفين كي تُباع جرائدنا. إذا نقدنا هذا، لا يجوز، وإذا انتقدنا ذاك، ندخل رأسنا ﻓﻲ البلاء، ولو انتقدنا فلانا، قدمنا للمحاكمة، وفلاناً، يرسل ردّ تكذيب وهذا مثير للغضب، وبما أن البلدية أكثر مرونة من غيرها ﻓﻲ الدولة، نهاجمها، فعندما نقول الحور الوسخ نقصد المقام الفلاني، أو الشوارع الضيقة نقصد المكان الفلاني، وإذا قلنا ثقوب نقصد شيئاً آخر..

- طيب يا سادة، وهل يفهم القراء ما هو قصدكم، أو ماذا تنتقدون؟

- هل من الممكن أن لا يفهموا، وقد اعتادوا على هذا منذ سنوات؟

- يا سادة.. أنا إلى هنا. حتى ﻓﻲ الحلم لا أقدر أن أكون رئيس بلدية ولذا أقدم استقالتي.. «خذوا وضوءكم وأعطوني قبقابي».

استيقظت من النوم أسبَحُ ﻓﻲ عَرَقي، هكذا تكون رئاسة البلدية من الفاصولياء والرز..!

ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن، وكي لا أرى حلماً مخيفاً أنام مستيقظاً.

أول وآخر راديو

عندما كنت طفلاً، لم يكن في حيّنا كله سوى راديو واحد في المقهى، وفيما بعد لم يبقَ بيت لا يوجد فيه راديو إلا بيتنا.

كان هدفي الأول، عندما أبدأ العمل هو شراء الراديو في أول راتب أقبضه. لكني لم أستطع شراء الراديو حتى صار عمري ثمانية وعشرين. دفعت من ثمنه مئتي ليرة كدفعة أولى والباقي سأدفعه شهرياً، أي ثلاثون ليرة لمدة عشرة أشهر.

أحافظ عليها، ومسرور بها وكأنني أنا من اخترع الراديو. في كل حديث مع من أعرفه أو أتعرف عليه أبدأ بالكلام، ثم أنتقل إلى الحديث عن الراديو:

«ما ماركة الراديو الذي عندكم؟ تاسيلي. كم مصباح عليه؟ عندي خمسة.. هل يصدر أصواتاً مزعجة؟ الكافر عندي يعمل مثل الزيت.. هل تأتي عندكم الموجة الأمريكية التي تسحب من كل مكان؟.

سعادتي لا توصف، أدعو زملائي بحجة ما، كي يشاهدوا الراديو.

قال أحدهم:

- ماذا فعلت بهذا الراديو؟ لقد وضعتَ الخط الساخن مكان البارد، والبارد مكان الساخن.

- لا..! كيف عرفت؟

- هذا معلوم، خذه إلى مصلح قبل أن تخسره نهائياً.

أخذته كما قال لي، وقلت للمصلح عن الخطأ الذي ارتكبته، فضحك وقال:

جيد أنك أحضرته، لو استخدمته خمسة عشر يوماً لاحترقت كل مصابيحه.

دُهشتُ! أمس دفعت أول قسط من ثمنه.

المصلح: أصلحه لك، بخمس وأربعين ليرة.

بعد ثلاثة أيام أخذته جاهزاً، في هذه المرة كان الصوت يرتفع دون لمس المفتاح، وعندما أخفضه، لا يلبث أن يرتفع لدرجة أن الزجاج يهتز.

لم تعد لدي ثقة بالمصلح القديم، أخذته لمصلح آخر.

قال لي:

- هل أصلحته من قبل؟

- نعم.. في الأمس أخذته من التصليح.

- وأي حيوان أصلحه؟ لقد ربط الشريطين بالعكس! يجب أن يبقى عندي أربعة أيام. وأجرته خمسون ليرة يا سيدي.

بعد أربعة أيام أخذت الراديو. وعند تشغيله هذه المرة، كان يصدر صوتاً خفيفاً، وطنيناً على أي محطة كانت.

أخذته إلى نفس المصلح، لم يكن المعلم موجوداً، أعطيته للعامل، فقال: هل أصلحته قبل هذه المرة؟

ودون أن أجيب تابع:

أي حيوان أصلحه لك؟!.. يجب أن يبقى يومين، سأبدّل مصابيح الصوت، وثمن المصابيح خمس وثلاثون ليرة. وأجرة تعبي عشر ليرات.

بعد المرة الثالثة من الإصلاح، اشتغل الراديو مدة ساعتين بشكل جيد، ثم بدأت المحطات تتداخل ببعضها، والموجات القصيرة تختلط مع الطويلة، في محطة أنقرة أجد باريس..!

وضعت الراديو المسكين تحت إبطي وتوجهت لمصلح جديد،

وقلت له: يا سيدي، قبل أن ترى الراديو، اسمعني، اشتريت هذا الراديو منذ شهر ونصف وكان ممتازا وكنت فخوراً به، أخذته لمصلح في أحد الأيام، لأني خُدعت بكلام صديق جاهل.

- فهمت، لا داعي لطول الكلام، منذ ذلك الوقت لم يعمل جيداً.

- كيف عرفتم؟!

- طبعاً، لقد امتلأ السوق بالحدادين، يدعون أنهم مصلحو راديوهات.

- إنني أطمع في إنسانيتكم، دفعت حتى الآن مئة وأربعين ليرة ثمن تصليح، أنا رجل دخلي قليل، أصغوا إلى وجدانكم، وإلى صوت الراديو المعطل.

نظر إلى الراديو بدقة وقال:

- سأجعله شاباً ابن العشرين، لكن عليكم دفع ستين ليرة أجرة.
- طيِّب، لدي بضعة قروش في المصرف، أعطيكم هذه النقود، ويكفيني أن توفوا بوعدكم وتصلحوه كما قلتم.
- سوف تُسرّ بعملي، ولن تذهب بعدها إلى مصلح آخر إن شاء الله.

بعد هذا الإصلاح العظيم، حصل شيء غريب، لم أستطع فهمه، الراديو يغني دون أن يلمسه أحد، وعندما ألعب بالمفتاح، يقف عن الغناء قليلاً، ثم يعود للغناء، وأحياناً في منتصف الليل، أقفز من نومي على صوته، إنه يغني على مزاجه. ليالٍ كثيرة أستيقظ على صوت الكمان، وأقفز من صوت موسيقا الجاز، الراديو أعلن استقلاله..!

فتشت وبحثت، فوجدت مصلِّحاً أثق به، قال الذي أرشدني إليه:

- إن الراديو الذي يخربه هذا المعلم لا أحد يمكنه إصلاحه. فعلاً إنه معلّم.

قال لي المعلم:

- أي قليل ناموس أصلحه؟ القطع منزلقة فوق بعضها والرأس رخو.
- ماذا ستفعل الآن؟
- سأجعله يعمل جيداً..

أصلحه المعلم بثلاثين ليرة. بدأ الراديو يصدر أصواتاً مزعجة. وفي ليلة من الليالي، جاء الجيران والشرطة إلى بيتنا وقالوا:

- سنفتش البيت.. إنكم تذبحون الناس هنا.

فضحكت وقلت:

لا نذبح أحداً يا أخي، هذا صوت الراديو.

كل مصلح يراه يقول وكأنهم بصقوا في أفواه بعضهم:

- أي حمار أصلحه؟
- أي قليل وجدان فعل هذا بالراديو؟

وأخيراً يقولون:

- القرص المدرج تالف.
- مصابيح القرص المدرج أعطتك عمرها.
- المصابيح معطلة. الإبرة رخوة..

ويأخذون أربعين أو خمسين ليرة.

وعندما نفدت ستمائة ليرة، وفرتها من لحمي وأظافري، بدأت أفكر كيف أسترد الراديو من المصلح.

أيقنت أن التفكير لا يساوي عشرة قروش، شغلت تفكيري ولم أجد سبيلاً إلى سبعين ليرة لأسترده، استدنت من كل معارفي، وأخجل أن أطلب مرة ثانية. بقيت ستة أقساط من ثمن الراديو، وقد قدم بائع الراديو دعوى للمحكمة، ليحجزوا على «ممتلكاتي» لأني لم أدفع الأقساط الشهرية.

الحل الوحيد أمامي، أن يباع الراديو عن طريق الحجز، فأدفع أولاً سبعين ليرة للمصلح والباقي أسدد بها بقية الديون، ولكن سأخسر ألفي ليرة تقريباً.

ذهبت إلى المصلح وقلت له:

- سأدفع لك أجرة التصليح، ولكن عليك أن تبيع الراديو، وتأخذ أجرتك، وتعطيني الباقي.

فتصوروا ماذا قال لي:

- هذا الراديو لا يساوي قرشاً..

- لا يساوي قرشاً؟ اشتريته بستمائة وخمسين ليرة. دفعت أكثر من ألف ليرة أجرة إصلاحات، وبقي مائتان وعشر ليرات من ثمنه، ألا يساوي ثلاثمائة ليرة؟

- لا يساوي.

- ألا يساوي مائتين؟

- لا يساوي.
- طيب، مئة؟
- لا يساوي مئة أيضاً..
- إذاً خذه مقابل إصلاحه، وأنا سأفعل ما بوسعي لأدفع الأقساط، لن آكل وأشرب حتى أنتهي منها .
- ليس سبعين ليرة... إنه لا يساوي سبعين قرشاً..
- كيف يا روحي؟

فتح الغطاء وقال: انظر.

ألقيت نظرة، فلم أجد شيئاً في الداخل، ولا حتى قطعة نحاس مهترئة..

قال: ضع يدك في الداخل.

وضعت يدي، وفتشت، لا شيء داخله. فقلت:

- أين القطع التي كانت في الداخل؟
- قل لي، كم عدد الذين أصلحوا هذا الراديو؟

حسبتهم، وقلت له:

-أكثر من عشرين..

- أليس لديك مخ؟!
- لماذا؟

KMH

- لماذا؟ راديو يقع بين عشرين مصلحاً، ويبقى فيه شيئ؟ كل معلم لو أخذ منه ثلاث أو أربع قطع..انتهى، احمدِ ربك أنهم تركوا لك الصندوق لتحتفظ به للذكرى.
- طيب يا أخ، ارحمني قليلاً، هل كان فارغاً عندما أحضرته لك؟
- لم يكن فيه سوى مكبر الصوت القديم، وقد أخذته.
- تطلب مني سبعين ليرة وأخذت مكبر الصوت؟
- ماذا تظن؟ عشرون عاماً ضاعت من عمري حتى تعلمت المهنة. هل تظن أن أخذ مكبر الصوت دون أن تخربه عمل سهل

أخذت العلبة الفارغة، وأدخلتها برأس الرجل حتى كتفيه.

بعد هذه المشكلة، مكثت في السجن ثلاثة أشهر. لن أشتري راديو مرة أخرى. هذا أول وآخر راديو في حياتي.

الفهرس



لوحة الغلاف: الفنان د. علي سليمان

الكرسي

قال اسبينوزا: «إذا وقعت واقعة عظيمة، لا تضحك ولا تبكِ ولكن .. فكّر».

تتجسد المقولة السابقة في نهج عزيز نيسين القصصي، إن عزيز نيسين إسم غني عن التعريف. والكثير من أعماله أصبحت في ذاكرة القارئ العربي.

حياة عزيز نيسين التي ملأتها المعاناة. أعوام السجن المريرة، وإغلاق العديد من الصحف التي أصدرها لم تنهه عن إتمام مهمته الجليلة، والتي تتمثل باختصار: لسان حال المجتمع التركي خاصة، ومجتمع العالم الثالث عامة.

عاش عزيز نيسين بين عامة الناس كفرد منهم، عرف طرائق تفكيرهم، شاركهم أفراحهم وهمومهم. أصبح مرآة تعكس واقعهم وتجسده في لوحات ساخرة، يبعث ظاهرها على الضحك، تحمل في ثناياها الألم والمعاناة والتخلف الذي يعيشه إنسان العالم الثالث وتنطق بالحقيقة الجلية، والتي مغزاها: إن التخلف ليتولد عن القهر، وما من شعب يتخلف اعتباطاً، ويبقى متخلفاً بمشيئته.

دار كيـــوان
للطباعة والنشر والتوزيع
الحلبوني - دمشق - سوريا
تلفاكس: 00963 11 2217240